سُلطة

وقصص أخرى

الحسين سليم حسن

دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني 2020

وسُلطة قصص

الحسين سليم حسن

العنوان: سُلطة

النوع الأدبي: قصص

المؤلف: الحسين سليم حسن

المُدقق اللُغوي: الكاتب بنفسه

اللغة: فصحى

التنسيق الداخلي والإخراج الفني: فريق عمل الدار

تصميم الغُلاف: فريق عمل الدار

سنة النشر: 2020

الحالة: حصريا

رقم الطبعة: 1

رقم الكتاب بالدار: 48

تم النشر بواسطة دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني2020

الدار غير مسؤولة عن أفكار الكُتّاب الواردة بإبداعاتهم؛ الكُتّاب وحدهم المسؤولون عنها.

الموقع الصفحة الجروب

سُلْطَة

(وقصص أخرى)

تأليف: راوي رشيدا

الفهرست

القصة الأولى: سُلطة ٦

الفصل الأول: 1981..... ١٦

الفصل الثاني:1991..... ٥٨

الفصل الثالث:2001 ..... ٧٩

الفصل الرابع:2011 ..... ٩٠

القصة الثانية: أحفاد زورو ٩٧

القصة الثالثة: اعترافات البومة القاتلة..... ١٢٧

نبذة عن المؤلف..... ١٣٧

القصة الأولى: سُلطة

– الفجر –

للوهلة الأولى قد يبدو ذاك المنزل القابع على حدود البلدة الشرقية منزلاً عادياً للغاية ،وقد تمر من جانبه دون حتى أن يثير فضولك ،كما لو أنه غير موجود ،أو ربما لو كنت ممن يملكون عيناً فنية ستجذبك حجارة جدرانه بأحجامها المتماثلة وبراعة الحجار الذي وفي زمن غابر استثمر كل جهوده وخياله في خلق تلك اللوحة الفنية العادية للمنزل .أما فيما لو كنت من أولئك الذين تأسرهم شاعرية الأغصان التي تتمايل مع النسيم الناعم في الامسيات الصيفية ،فمما لاشك فيه انك ستمر بجانب المنزل دون أن تلحظه وسيشغلك عنه الإيقاع الحزين الذي تعزفه أشجار السرو القابعة أمام المنزل ،التي وبفضل شيخوختها اللافتة للنظر ستضطر لأن تضيع وقتاً ما في تأملها .

أما فيما لو أنك قصدت يوماً المنزل مع سبق الإصرار والتصميم ،وأنت مدرك للغاية وجهتك ،فأنت في الغالب لن تنتبه إلى شيء من كل هذا ،سوف تضع خلف ظهرك كل ما تحدثنا عنه سابقاً ، أي كل ما يخص خارج الملكية التي خصصها التاريخ لرب هذا البيت ،ويصيبك العجز عن التفكير بأي أمر سوى ما ستراه وتسمعه وتعيشه في الداخل ، بعد أن يفتح رب

المنزل والذي في يده السلطة المطلقة لك الباب ويبتسم لك مؤهلاً ومسهلاً ،وأهل بيته مصطفون خلفه كالبنيان المرصوص يؤهلون ويسهلون أيضاً ،مع ابتسامات طفولية حقيقية للغاية على شفاههم .

حسناً ،لنكمل ماقد بدأنا تخيله ولنفترض أنك قررت أن تعيش في ذاك المنزل فعليك أن تعي جيداً القواعد غير الصارمة التي يفرضها نظام هذا المنزل ، والذي ليس شرطاً أن تطبقها ،فأنت بصفتك ضيف عليه أنت معفى منها ، فقوانين هذا المنزل تسري على ساكنيه فقط.

دعني ياصاحبي أسهب لك في الشرح عن تلك القوانين التي سبق وشرح لي عنها صديقي نبيل ،و التي فرضها رب هذا المنزل منذ سنوات كثر يصعب تخمينها ،والتزم بها بنفسه قبل أن يفرضها على الجميع فرضاً ،لذا ليس عليك أن تشعر بالعجب من دقة موعد ولادة المنزل اليومية ،عند السادسة من صباح كل يوم ،حين يبدأ تسلل خيوط الشمس بين الفراغات التي تشكلها تقاطعات أغصان شجر السرو المقابل للمنزل ،ويتزامن ذلك مع استعداد الديوك لمهمتها اليومية التي تقف من أجلها يومياً رافعة مناقيرها فخورة بمهمتها التاريخية التي تجهل بأن زمانها قد ولى واندثر ،والتي يصر رب المنزل بأنها وحدها من توقظه في صباح كل يوم ،لينهض كالعادة من فراشه في غرفته في الطابق السفلي ،بعد أن تعبق في أنفه روائح البخور المنطلقة من المدفن المجاور ،وروائح أزهار الدفلى وفم السمكة والفل التي تقتنيها سارة إحدى بناته الست في فناء المنزل الواسع ،حينها يرتدي شماخه

الأحمر وعقاله وسرواله الذي يرفض أن يستبدله ببنطال رغم إلحاح أبنائه ، ثم يتسلل ببطء من الغرفة كي لا يوقظ زوجته الخمسينية النائمة بقمطة رأسها البيضاء ،وجواربها الصوفية السميكة ، خوفاً من البرد والمرض ،ويتوجه بعدها نحو الإسطبل ليلقي نظرته اليومية على الأبقار والدجاجات التي يربيها منذ زمن بعيد .عندها لن يجد نفسه المستيقظ الوحيد في المنزل ،وسيلاحظ كالمعتاد ابنته وحيدة وهي تقرفص لتباشر في حلب أثداء البقرات ،وسيسمع في اللحظة ذاتها صوت المذياع المنطلق من المطبخ والذي يصدح ككل يوم بالأغاني الفيروزية ،عندها سيطمئن بأن ابنته سارة التي يحبها حباً جماً قد استيقظت بمزاج جيد وباشرت وبكل رضا في غلي الجبن لتعقيمه وتحضير الشاي بالقرفة من أجل الفطور ،والتي كانت تقوم بكل هذا بكل سعادة ودون بذل أي جهد ،وبقبول تام بالخضوع لسلطة والدها مقابل أن تعيش الأمان والكرامة اللتين تمنحهما لها هذه السلطة التي جربت ذات يوم ان تعيش بعيدة عنها عندما سافرت لتلقي العلم في المدينة واستقرت في منزل أخيها الكبير محمود الخارج عن السلطة والمغضوب عليه من قبلها ،والذي ذاقت عنده طعم ثمن العصيان ،وفرت وهي تلهث من الحياة المعذبة التي يعيشها العصاة كعقاب أبدي لهم !

وعادت بعدها إلى حضن والدها ،وجنته راضية بكل قوانينها ،التي أصبحت فيما بعد مفهومة واعتيادية ،لتستلم مهمة تنظيم المنزل والاعتناء بوالديها ،ووضعت على عاتقها مسؤولية أن يحظى الجميع بصحة جيدة بفضل الغذاء الذي وجب عليها تأمينه .تلك المسؤولية التي

عتقت نفسها منها والدتها رحيمة مذ أصيبت بآلام المفاصل في قدميها ،وانزوت في غرفتها ملتزمة بموضع خاص بها على الأريكة الحجرية المفروشة بالبسط الملونة التي كانت قد صنعتها بنفسها في الماضي من بقايا الثياب المستعملة ، وداومت على الجلوس عليها وهي تسلي نفسها بالأشغال البسيطة كالمساعدة في تقطيع الخضروات أو خياطة الجوارب والثياب المفتوقة أو حتى في القضاء على الذباب في الصيف باستخدام أداة بلاستيكية خصصت لذلك .

وأحياناً ولكونها الأكثر قرباً من السلطة البيتية _رغم أن ذلك لا يمنحها أية امتيازات _كانت تحاول أن تفرض بعض آرائها على قاطني المنزل مستعملة صوتها الخافت ولكنتها المهذبة والتي غالباً تكون غير مجدية ، الأمر الذي جعلها تعكف نهائياً عن إدلاء رأيها فيما يتعلق بالقرارات المصيرية لأفراد العائلة ،والتي كان آخرها قرار ولدها الأصغر يحيى بالزواج من فتاة من المدينة تختلف عنه كثيراً .

فقد كان ليهتم بشأن تاخر حلب البقرات أكثر من اهتمامه بموضوع كهذا ، أو أن يراقب بصرامة سير عملية قطاف التبغ ليتأكد من جودتها التامة ،فقد كان التبغ ومردود الحيوانات التي يربيها بالإضافة إلى ما يجنيه من حقوله الزراعية نقطة قوته الاقتصادية وهي إحدى أهم نقاط قوته التي تحفظ له السلطة المطلقة .

لم يحبذ رب المنزل هذا الزواج لكنه ولكونه غير صارم سوى فيما يخص القواعد البيتية وقواعد العمل التي تتعلق برزقه من الأراضي الزراعية ،لم يشأ أن يتخذ قراراً في شأن كان يعتبره خارج الأمور التي تشكل أولويات اهتمامه المنصب على استمرار هذا المنزل والحفاظ على الحياة فيه .

لنكن موضوعيين ولنقل بأن تلك السلطة لم تتصف بالأنانية ،وسمحت لبعض منها أن ينتقل بنعومة إلى ابنته الكبرى وحيدة ،التي وفي البداية شعرت بنشوتها ،وراحت تكرر إصدار قرارات والدها بل وبصرامة أكبر ،واعتقدت بأن القوة التي منحتها لها تلك السلطة هي الضمان الوحيد للسعادة التي افتقدتها دوماً ،وكان ذلك في الماضي بسبب تلك السلطة نفسها ،التي جعلت منها ومنذ صغرها كتفاً يمكن الاستناد عليه جيداً ،فتولت منذ طفولتها مسؤولية قيادة أفراد العائلة في العمل أو المنزل ،وعوضها ذلك النصيب الضئيل من السلطة عن اختلافها عنهم في أميتها ،وأكسبها شهرة واسعة ومكانة في المجالس الرسمية التي ترتادها العائلة ،سواء كان ذلك لتقديم تعزية أو حضور حفل زفاف .

وذاع صيت وحيدة كامرأة قوية وكمثال للتحمل والشقاء في أوساط البلدة جميعها ،الأمر الذي زادها امتلاء وكبرياءً ،واكتنفها شعور ما بالحرية الذي قادها نحو حيوية أكبر جعلتها تعيش مجدها بكامل تفاصيله .

فأصبحت القائدة في كل شيء ،صباحاً تقود عمال الحقول في موسم الزيتون نحو الحقول مع ابتسامة منتصر مرسومة على شفتيها ،ونشاط لاحدود له ،وفي المساء تقود أفراد العائلة في زياراتهم التي يفرضها الواجب عليهم لسكان البلدة من الأقارب والأغراب ،أيضاً مع ابتسامة لا تخبو أبداً .

وكان لديها أيضاً زياراتها الخاصة التي تتحرر فيها من شخصية القائدة وتنسى نفسها فيها وتعود طفلة صغيرة تسرد الحكايات والأحداث التي وقعت معها على مسامع جيرانها مثل الجد بطرس مدرس اللغة العربية المتقاعد وزوجته اللذين يعيشان في منزلهما الكبير وحيدين دون أبناء تسليهم قراءة الكتب والاعتناء بشجيرات الأنكي دينيا والخوخ والأحاديث التي تدور مع وحيدة التي كانت تنصت جيداً لما يدلي به الجد بطرس من آراء فيما يتعلق بالتغيرات الاجتماعية التي تفضي إليها التغيرات السياسية أو عن تأثر المواسم بتلك التغيرات ،أو ربما يقود به مزاجه نحو إسماعها بضع أبيات من قصائد بودلير أو أحمد شوقي .

وكانت وحيدة تعود دوماً فخورة بما تحمله في رأسها مما سمعته ،لتناقش فيها أشقاءها المتعلمين والذين غالباً لا يملكون قدراً من الثقافة كافياً لفهم ما تقوله ،فالعلم لايعني الثقافة في أي بقعة على وجه الأرض ،ويمنحها ذلك عادة ثقة تصقل سلطتها ،وشعوراً بالنصر على شقيقها نبيل المتحصل على أكبر قدر من العلم بين أفراد العائلة كلها ،والتي كانت تجد فيه نوعاً من عدم الاكتراث لسلطتها ،وخافت دوماً أن يتحول هذا قريباً إلى نوع من التمرد كما

تحول مع شقيقها الأكبر محمود الذي كان عقاب تكبره على سلطة والدها هو العيش في الشقاء .

وكانت شكوكها هذه عن نبيل مردها تجربته الطويلة في العيش خارج حدود ملكية الوالد ،لما غادر البلدة لتلقي العلم في المدينة وأرسلت له رزم النقود في البريد بتوقيعها ليصرفها على الأشياء الممنوعة التي حرم منها داخل حرم والده ،كإرسال الورود إلى الصديقات المعجبات الكثيرات ،واللواتي غالباً يتوهم بإعجابهن له .

وربما لم تكن تلك الأمور ممنوعة في منزل الأب ،وإنما القواعد الموضوعة لم تتح له فرصة لتجربتها ،كما لم تتح له الفرصة لاقتناء الكتب ودواوين الشعر الرومانسية لعدم توفر وقت كاف للسفر الى المدينة لابتياعها ،مما جعله يدمن على شرائها في سنوات تحرره ،وراح ينشد ما يقرأه على أول فتاة يصادفها فلم تنجو من قصائده لا لا ابنة الصائغ بفستانها القصير ،ولا ابنة الإمام المنقبة .

وعندما عاد إلى حضن العائلة ،وجد صعوبة في التعود مجدداً على النظام القائم ،وعلى وجود نسوة قويات لا يكترثن بالرسائل والورود ويتمتعن بنوع من السلطة ،لذا سارع في اتخاذ زوجة له ،فاختار إحدى طالباته الخجولات واللواتي يهتتمن بأنوثتهن بشكل مبتذل ،لتكون زوجة له .

أنجبت له تلك الزوجة طفلة ثم توفيت ،فعاد مجدداً إلى إرسال الورود وإلقاء القصائد والزجل ،وتدبرت السلطة العليا بأمر الطفلة ووجدت حلاً مناسباً لهما ،بأن تعيش في كنف عمتيها وحيدة وسارة .

وكان هذه الطفلة بمثابة دافع قوي للعائلة بأن تستمر على نظامها نفسه لتأمين حياة جيدة للجميع وللطفلة خصوصاً ،ووجد أفراد العائلة فيها سلواناً عن أعمالهم في المنزل والحقول ومصدراً لإحداث ضجيج ما وسط هذا السكون القاتم .

ولعل أكثر من تعلق بالطفلة كانت خديجة الابنة الثالثة ،وشغلها ذلك عن مهمتها كضابط للألسن والتذكير الدائم بوجود إله في السموات يعاقب بقسوة عند الضرورة وعن وظيفتها الأخرى كمدرسة والتي حصلت عليها بفضل شقيقها مصطفى ، الذي وجد في تقربه من الأوساط السياسية ورؤساء البلديات سلطة ما حلم دوماً بأن تكون أكثر أهمية من سلطة والده البيتية التي أنهكت جسده وعقله بقوانينها الوجودية المحضة .

لكن تلك السلطة التي سعى دوماً لتوسيعها لم تغنه عن سلطة والده ،بل بقي مرتبطاً بها وبشدة ،لأن ما منحته إياه الأوساط الحزبية والتقرب من أصحاب الثروة والنفوذ من ميزات لم تضمن له الأمان والتعويض عند السقوط ،كان ذاك الأمان في منزل الأب فحسب .

ولو أنه كان قد خرج من حدود ملكية والده واشترى بيتاً له بعد زواجه ،إلا أن ذاك البيت لم يكن بعيداً عن منزل الوالد ،الأمر الذي جعله مجبراً على رؤية صرح والده كلما خرج

من منزله الذي سيبدو تافهاً للغاية أمام شموخ منزل الأب ،وقد كان هذا يحزنه بشدة ويزيد من شراسته الثورية التي قادت به نحو السعي دوماً خلف المال والقوة ،وجمع المزيد من الموالين له فراح يتقرب من أشد الأثرياء ثراءً في البلدة مثل جورج صاحب المطعم الكبير الوحيد فيها ،وأقيمت الولائم العارمة باللحوم والخمور بينهما ،وحظيت طاولات المطعم بنقاشات مصيرية للبلدة وأهلها بفضل الاجتماعات التي أقيمت حولها بين مصطفى و جورج و رئيس البلدية والمختار والقس وبضعة من الذين يسمون أنفسهم وجهاء البلدة .

وغالباً كانت تلك الاجتماعات تسفر عن قرارات تتعلق بشأن توظيف أحد أبنائهم ،أو اختراع طرق لتمكين شعبية ومكانة أحدهم ،وكثيراً ما كانت تلك الاجتماعات لا تفضي إلى شيء سوى حشو البطون والترويح عن النفس .

وكان يفخر بإنجازات سلطته الفردية في تعيين رئيس للبلدية أومدير للثانوية ،أو عندما ينجح في إقامة عزاء فخم لرجل مرموق من رجالات البلدة ،أوينجح في إبراز أفراد عائلته بأجمل بريق يمكن في حفل ما من الحفلات المقامة في المطعم ،على الرغم أنك لو أتيت قبل ذلك بساعات ستجدهم ذاتهم يهتمون بمزروعات الحديقة المحيطة بالمطعم ،فقد كان سر سلطتهم في منظور مصطفى يكمن في تواضعهم ،وفي تودهم للجميع باستثناء من عصوا كلمة رب المنزل من أفراد العائلة أو من فروا باحثين عن شكل آخر من أشكال السلطة .

مثلما فعلت شقيقته أم كلثوم وزوجها الفقير الحال ،الذين أسسا حياة بعيدة عن السلطة مطبقين لما تعلموه من منزل الأب من قواعد بصرامة أكبر كونهما بدآ من الصفر ،لكنهما لم ينجحا في بناء سلطة مماثلة ،لأن النسخة المقلدة من أي شيء لن تملك حقيقة الأصل بتاتاً .

لذا علم الجميع بأنه من المحال العيش بعيداً عن ذاك المنزل ،وأن مصيرهم دوماً العودة إليه لأنه وحده الراسخ والثابت وسط هذا العالم المتغير والمخيف !

الفصل الأول: 1981

_1_

((جميل))

لم يكن في وسعي بعد أن خسرت كل ما ورثته عن والدي سوى أن أقبل بوظيفتي التي أوكلت إلي كمدرس في إحدى البلدات في الريف الشمالي السوري على الحدود التركية ،بعد ان أيقنت بأن المال ضروري لكي يعيش المرء ،وتركت بذلك عالمي الذي خلقته في منزلي المتواضع في شارع جان دارك في بيروت ،ذاك العالم المفعم بكآبة كافكا و نبض ألوان بول كلي و شجن داليدا .

حملت حقيبتي في صباح يوم غائم وكئيب ،بعد أن ودعت هاتفياً عشيقتي ليلى التي لم تكترث كثيراً بالأمر ، فقد كان الشبق الذي بنيت على أساسه علاقتنا قد بدأ يخبو بيننا منذ زمن .

لذا عندما تحركت السيارة بي وبدأت تبتعد أكثر فأكثر عن المنزل لم يراودني سوى شعور واحد هو ألم الانسلاخ عن عالمي الفسيفسائي الذي صنعه خيالي ليخفف عني عبء الواقع

،ويغلف شعوري المخجل بالفشل في علاقاتي الإنسانية مع الناس ، وفي بناء روابط قوية في الصداقة أو العاطفة .

لم يدم هذا الشعور بالانسلاخ طويلاً ،لأن تأمل الطريق الذي تسلكه السيارة عبر زجاج النافذة جعلني أشعر بأنه يحمل لي في نهايته بداية ما .

وعلى الرغم من أن السائق كان يحاول دون استسلام بأن يخرجني من حالة الصمت الأبله المصحوب بجمود ملامح الوجه والنظرة الغامضة ،إلا أنني آثرت البقاء فيها كمرحلة موت مهمة تفصل بين حياتين مختلفتين لي .

وقد اضطررت إلى إنهاء تلك المرحلة لما اقتربت السيارة من حدود البلدة لأطلق تنهيدة ارتياح منحني إياه اللون الأخضر المشبع لأشجار الخوخ المصطفة على جانبي الطريق ،والذي مرد الطمأنينة التي يمنحها ربما وضوحه .

كان وضوح اللون الأرجواني الغامق لأزهار الدفلى التي تزين بعض شرفات البيوت ،يمنح شعوراً بخفة الجسد اللذيذة والتي نشعر بالرغبة فيها أحياناً ،فالجسد لا يحتاج دوماً للشعور بثقله والذي يدفعنا أحياناً لضم جسد آخر بقربنا وولوجه ،وإنما قد يحتاج إلى الخفة التي ترفع أقدامنا عن مستوى هذا العالم نحو الحلم .

والخفة التي شعرت بها في السيارة جعلتني أسهو عن وصولنا منزل صديقي نبيل الذي بدا صرحاً مسيجاً بالأزهار الملونة و منفصلاً عن بقية البيوت ،تظلله ثلاث شجرات سرو ضخمة عجوز ،تمد رؤوسها من خلف جدران مدفن مجاور يفصل بينه وبين المنزل فسحة ينفتح خلفها فضاء من الحقول خال من البيوت .

وقد منحت أشجار السرو للمنزل كآبة كافكاوية لم ترق لأزهار الشرفات الفارة وبإصرار تام نحو الحرية .

كما لم ترق لها أن ينافسها البخور المنطلق من بين الأموات في عطرها ،أو في كونها العنصر الأهم في تكوين انطباع عن المنزل .

لما ترجلت من السيارة ،كان صديقي نبيل ينتظرني عند باب المنزل ،وقد بدا عليه حزن ما ،أدركت كنهه لما ولجنا المنزل لنرى أفراد العائلة مجتمعين ومتشحين بالسواد ،وثمة خوف من المجهول واضح في سحناتهم .

سلمت عليهم فرداً فرداً ،وتكفل نبيل بتقديمهم إلي ،ودهشت حينها لرؤية مجموعة من البشر يقفون الوقفة ذاتها ،ويمارسون البكاء والنحيب ذاته ،وكأن لهم العقل والأفكار ذاتها كان ثمة أناس غرباء كثر أيضاً يملؤون فناء المنزل الكبير ،جلسوا يتهامسون فيما بينهم ،مررنا أنا ونبيل من أمامهم دون أن ننظر إليهم و دخلنا غرفة في صدر الفناء ،أخبرني نبيل فيما بعد أنها غرفة مخصصة للضيوف .

كانت غرفة سقفها من الخشب ،وقد زينت جدرانها بصور لأفراد العائلة ،ثمة صورة لزوجة نبيل المتوفاة ،لاحظت شبهاً غير عادي بينها وبين ليلى عشيقتي السابقة .

جذبتني أيضاً لوحة معلقة رسمت بالألوان الزيتية ،علمت من نبيل أنها لشقيقته الصغرى ،التي قررت يوماً أن ترسم انطباعها عن المنزل ،فنتجت هذه اللوحة التي تمثل منزلاً كبيراً وشاحباً يقع في الظل ،مبني من حجارة لا لون لها تقريباً ،تبرز من بين شقوقه ورود ملونة صغيرة .

لاحظت مكتبة زاخرة بالكتب الدينية في صدر الغرفة ،قال نبيل أنها تخص أخته خديجة ،تناول منها المصحف الشريف واستأذنني بالخروج قليلاً ،مبرراً بأنه عليه إيصال القرآن إلى شقيقته خديجة في الغرفة المجاورة حيث تجلس النسوة تصلين لأبيه الذي تبين لي أنه قد توفي منذ يومين .

تمشيت قليلاً في الغرفة ريثما يعود ،متأملاً السقف الخشبي الذي بني ببراعة وجلد كبيرين ،حمل النسيم القادم إلي من النافذة رائحة أزهار وبخور ،ثم سمعت صوت تلاوة للقرآن صادر من جهاز مكبر للصوت ،عندها عدت إلى مكاني في الأريكة ،ودخل نبيل بعدها وهو يمسح دموعه بكم قميصه ،جلس بجانبي وأحنى برأسه نحو الأسفل وقال : ((لا أحد يعلم كيف سنمضي بدونه ؟ سنضيع حتماً...))...

نادت إحدى النساء عليه معلمة إياه ببدء مراسم الجنازة ،نهضنا معاً مستعدين للخروج ، طلب مني البقاء في الغرفة لأريح جسدي المتعب من السفر الطويل ،لكنني أصريت على مرافقته .

عبرنا من فناء المنزل المكتظ بالنسوة الباكيات ،والصادح بعويلهن وكلامهن عن فضائل الميت وخصاله الحميدة .

في الخارج كان عدد هائل من الرجال يحاولون الاصطفاف في رتول منظمة ،ليتمكن الإمام ذو اللحية السوداء الحالكة والعينين الواسعتين السوداوين اللتين تتركان انطباعاً في النفس بأنهما غير مكترثتين بما يدور حولهما .

شدني نبيل فجأة من يدي لكي نعثر على مكان ما في الرتل الذي يلي الإمام مباشرة ،بعد أن لاحظ بأن شقيقه مصطفى كان يدعو ولاته وأصدقائه من أثرياء البلدة وخارجها لاحتلال الرتل الأول ،وقد بدا على وجهه تجهم عظيم ،وعلى جوارحه اضطراب وحماس غير مبرر .

سمعت فجأة أحد الحضور يصيح : ((من الأفضل ألا تذهب النساء)).

صرخت خديجة من مسافة ليست بالقليلة: ((لم ؟ الدين الإسلامي لا يمنع المرأة من حضور الجنازة ؟)).

لم يكترث أحد بما قالته وكأنها لم تقل شيئاً ،وراحت النسوة تدعون بعضهن لولوج المنزل والامتثال لأوامر الرجال .

أثناء سيرنا نحو المقبرة ،راح الرجال يتمتمون بأشياء لا أعرف عنها شيئاً ،وعلى الرغم من أن الغيوم القليلة التي ملأت السماء لم تغطي الشمس حتى ،إلا أنها أرسلت فوق رؤوسنا بضعة قطرات من المطر ،وفي الأفق ظهر لنا قوس قزح شاحباً .

عند وصولنا إلى المقبرة المتواضعة والتي كانت عبارة عن قطعة أرض صغيرة مسيجة بالأسلاك الحديدية ،وقد تربعت فيها أشجار سرو شامخة تمنح للمقبرة ظلمة دائمة بفضل الظلال التي ترميها على ظهور القبور ،شاهدنا خلفنا مجموعة من النسوة اللواتي رفضن الرضوخ للقرار الرجولي ،وكانت في مقدمتهم وحيدة الأخت الكبرى لنبيل ،والتي أدهشتني بنيتها القوية كبنية رجل .

استسلم الرجال للأمر بعد أن شاهدوا أن وحيدة من تقود النسوة ،وقام حاملو النعش بإنزاله فوق صخرة ليتم الصلاة عليه أمام المقبرة ،بينما راحت النسوة خلفهم تولولن وتسردن القصص عن أبي محمود .

بعد الانتهاء من مراسم الجنازة ،وقف نبيل وأشقاؤه في رتل لكي يتقبلوا التعازي ووقفت انا بجانبهم ،وراح الأطفال أحفاد أبي محمود يقدمون القهوة العربية المرة للمعزين ،بعد أن أطلق مصطفى صرخة في وجوههم يأمرهم فيها بذلك .

تعب كفي من المصافحات الطويلة والتي لم تنتهي إلا بعد أن انخفضت الشمس خلف أشجار السرو ،و أخذت شعاعاتها البرتقالية تتسلل عبر الأغصان لتبعث في النفوس حزناً زيادة على حزنها .

وما منح هذا المشهد صوفية أكبر كان صوت جرس الكنيسة الذي دق في تمام السادسة مساء ،وأدهشني لجهلي بوجود كنيسة في البلدة .عندها اعتذر بعض الحضور من مصطفى وتوجهوا لحضور قداس المساء بمن فيهم القس .

توجه بعدها الحضور للجلوس في خيمة التعزية ،وانقسموا إلى أتباع مصطفى من الأثرياء وأصحاب المناصب ، و إلى غيرهم من الحضور الذين جلسوا بعيداً عنهم بالقرب من الأماكن المخصصة لأطفال العائلة .

استأذنت من نبيل للمغادرة مبرراً بأنني على وشك السقوط من شدة التعب ،فنادى على أحد أبنائه لإيصالي إلى المنزل .

مشيت خلف الطفل الذي راح يعجل في مشيته مستمتعاً بدوره .ثم خطر لي أن أسأله سؤالاً : هل تحب جدك ؟

أجابني : طبعاً أحبه كثيراً ..

_ من تحب غيره بالمقدار نفسه ؟

_ لا أحد ،ليس مهماً ،المهم أن تحب جدي .. وأنا أحبه للغاية ...

قادتني خديجة إثر وصولي المنزل إلى الغرفة التي خصصت لي ،صعدنا معاً درجاً حجرياً يوصل إلى الطابق الثاني ،دون أن تنظر إلي بتاتاً أو تنطق بأي حرف .

تمكنت من تأمل وجهها المدفون بين القماش الكثيف لزيها الأبيض المخصص للصلاة ،وراق لي بالرغم من عظام وجنتيها البارزتين والتي لاأفضلها في وجه المرأة ،بل كنت في طبعي أحب الوجه الممتلئ .

كانت الغرفة المخصصة لي مرتبة تفوح منها رائحة النفتالين الممزوج برائحة الأزهار التي تزين نافذتها الصغيرة ،قالت خديجة أنها هي من انتقت لي النرجس لأنه يبعث على التفاؤل ،وابتسمت على نحو أدهشني ،وغادرت وهي لم تزل تبتسم .

كان في الغرفة باب يفضي إلى سطح المنزل ،عبرته فوراً ،وأصبحت عندها في مستوى رؤوس أشجار السرو القابعة أمام المنزل ، وتسنى لي رؤية البلدة كاملة بدءاً من حدودها الغربية حيث تقبع كنيسة ضخمة بنوافذ متماثلة ، وصولاً إلى حدودها الشرقية التي تنتهي بالمقبرة المستظلة بأشجار السرو . شعرت بقشعريرة ما عندما سمعت صوت مرتل القرآن القادم من جهة الشرق حيث يقام العزاء ،المتداخل مع أصوات النساء المنتحبات القادم من فتحة على السطح تطل على أرض الديار ،ومع صوت الرياح الباردة التي هبت من الشرق ولفحت وجهي .

اقتربت من الفتحة مسترقاً النظر إلى النسوة المجتمعات ،ولاحظت أن خديجة قد عادت إلى تجهمها السابق ،بينما كانت عزة زوجة مصطفى تسرد بفخر لإحدى المعزيات كيف قبض شقيقها العقيد على إحدى عصابات التهريب الخطيرة .

عادت في هذه الأثناء وحيدة مع النسوة التي تجرأن على مرافقتها إلى المنزل ،وهن يصرخن ويولولن ،مما دفع بالنسوة الجالسات إلى التخلي عن أحاديثهن والعودة إلى البكاء والنحيب من جديد .

سارعت الأخت الكبرى أم كلثوم إلى ضم أختها وحيدة وكأنها المتضررة الأكبر من موت والدهما ،أو أنها خليفته في حمل أثقال هذه العائلة على كتفها .

((لقد كان رجلاً حقيقياً)) صرخت عزة موجهة كلامها إلى الجمع كله ،وكأنها تخطب بهم ،ثم ذرفت عينها بصعوبة دمعة مترددة ،سقطت على الأرض وفق خط مستقيم ،فقد كان رأسها ينتصب بثبات شديد ،وعيناها تحدقان دون أن ترمشا حتى في أشجار السرو المقابلة للمنزل .

بينما راحت خديجة تخفض رأسها أكثر فأكثر وهي تسبح بيديها المرتجفتين ،وراحت امرأة بجانبها تصلب على وجهها . من جهة الشمال هناك قرب أسلاك الحدود التركية انطلق صوت صراخ وتأوه امرأة ،التفت إلى مصدر الصوت ،فشاهدت امرأة بين الحقول ،تضغط

بيديها بشدة على ظهر رجل ضخم لتدخله فيها أكثر ،بينما كان هو يحاول ألا يرمي بثقل جذعه عليها ،ويكتفي برمي ثقل نصفه السفلي .

كان ذلك يحدث في ظل شجرة زيتون ،في بقعة أمان صغيرة وسط العراء ،والصراخ يعلو ويعلو دون أي خوف من أن يسمع ،فقد كان يعلم جيداً أنه يحتمي بمنزل شغل الناس بأمر موت ربه ،وخدرهم بعويل نسائه القويات ،ونفوذ رجاله الطموحين .

***

فوجئت بهوية الفتاة التي شاهدتها بين الحقول لما اجتمعنا جميعاً على المائدة مساء من أجل العشاء ،كانت ابنة صديقي نبيل من زوجته المتوفاة ،وتدعى فيوليت .جاءت وانضمت إلينا بعد زمن من جلوسنا ،وقد بدا على وجهها ملامح حزن شديد .

جلست إلى جانب وحيدة التي ربتها في الصغر والتي راحت تهتم بصحنها ،وتملؤه بصدور الدجاج المشوية ،وتضمها كل هنيهة مقبلة جبينها .

تناولت الفتاة طعامها دون أن تنطق بأي حرف ،أو حتى أن ترفع رأسها للأحاديث التي كانت تدار ،والتي استلم مصطفى زمام المبادرة فيها بحماس غريب ،جعله في غفلة عن كمية اللحوم التي كان ينهشها وهو يسهب في حديثه المبتذل عن نجاح العائلة في إقامة مراسم عزاء جيدة ،تليق بسمعة العائلة ومكانتها .

وشاركته زوجته عزة في ذلك الفخر ،مطلقة ضحكة لا تتلائم مع الظرف المعاش .الأمر الذي جعل من خديجة تتضايق بشدة .

غادرا مباشرة بعد العشاء إلى منزلهما ،قالا بأنه عليهما استقبال ضيوف كثر وبأن أولادهما لا يمكن تركهم بمفردهم لمشاجراتهم المستمرة والخطيرة للغاية .

بينما جلسنا جميعاً لتناول الشاي والحليب ،وراح نبيل وشقيقاته يكلمونني عن البلدة وطباع الناس فيها ،وعن بعض العائلات التي يتوجب علي أخذ الحذر عند التعامل مع أبناءها .

انسحبت فيوليت دون ان يلحظها أحد سواي ،بينما استأذنت بالذهاب إلى غرفتي ،ولما مررت بجانب المطبخ شاهدت سارة مرهقة وهي تجلي صحون العشاء بمفردها .

صعدت الدرج الحجري المفضي إلى غرفتي ،وهبت ريح شديدة جعلت من أشجار السرو تصدر حفيفاً لطيفاً على الأذن ،فالتفت إليها فرأيت فيوليت قد تسلقت حائط المدفن المجاور وجلست فوقه وهي تلعب بكرتي سرو بضجر وتململ .

عندما دخلت الغرفة سارعت نحو حقيبتي وأخرجت رواية (ترنيمة عيد الميلاد) منها ،واستلقيت على السرير أقرأ فيها .

كنت قد قرأتها مراراً لكن وجود المدفن المجاور والأحداث التي شهدتها في هذه البلدة جعلتني اشعر برغبة شديدة في عيش أجواء تلك الرواية مجدداً .

غفوت وأنا مستغرق في القراءة ،و رحت أكلم نفسي في الحلم وأتساءل : ماذا لو أنني مخطئ وأن تلك الفتاة التي شاهدتها بين الحقول لم تكن فيوليت ؟

***

أيقظني نبيل في اليوم التالي بعد أن استغرقت كثيراً في نومي العميق ،وأخبرني بأن ابنته فيوليت هي من سترافقني إلى المدرسة ،لأنه سيتغيب من أجل استقبال المعزين .

كان جميع أفراد العائلة قد استيقظوا و باشر كل منهم في دوره ،سمعت صوت آلة الحلب أثناء نزولي الدرج الحجري ،وصوت بخاخ الماء الذي كانت سارة تنظف به أزهار الفناء ،والتي ما إن رأتني حتى أشارت إلي لقصد المطبخ من أجل الفطور .

في المطبخ كانت فيوليت التي نشأت أصلاً بين عماتها في منزل جدها تتناول الفطور وهي على أتم الاستعداد للذهاب إلى المدرسة ،في بذتها العسكرية الموحدة .

بدت عابسة ولم تبتسم لي حتى عندما ألقيت التحية عليها ،ردت علي بصوت خافت ،ولم تلتفت إلي وكأنها لا تكترث لأمري بتاتاً .

قامت بتكسير الكعك بغضب بأصابعها ثم أضافته إلى كأس الحليب أمامها ،وراحت تأكل الكعك المغمس بالحليب بواسطة ملعقة .

بكت فجأة واضعة كفيها على عينيها ،وراحت تردد : لقد كانت هذه طعامه المفضل ..ثم مسحت دموعها فوراً ،مستعيدة توازنها في زمن قياسي .

دخل نبيل بعد وقت قصير ،وجلس ليشاركنا الفطور مبدياً إعجابه بالأطعمة التي تزخر بها المائدة ،لاحظت عندها ابنته وهي ترميه بنظرة خاوية .

غادرنا المنزل بعدها قاصدين المدرسة ، عبرنا الشوارع بداية دون أن نتفوه بحرف ، لم نرى شيئاً يلفت النظر ،سوى الأعلام الورقية التي ترفرف هنا وهناك .

لما مررنا في الشارع الرئيسي للبلدة والذي يربطها بالمدينة المجاورة ،أشارت فيوليت إلى الحافلات المصطفة لتخبرني بأنها الحافلات التي توصل النسوة إلى المدينة ليبعن أشغالهن اليدوية ،والرجال ليبيعوا الثمار المقطوفة كالخوخ والعنب والتين .

ثم أخبرتني بغصة عن قوانين جدها الصارمة فيما يخص مواسم قطف الثمار ،وعن أغطية الطاولات التي تصنعها عمتها وحيدة وترسلها مع بعض النسوة لبيعها .

عندما وصلنا إلى المدرسة التي تقع إلى جانب الدير ،استأذنتني لدخول الدير وإلقاء التحية على الراهبات الواقفات أمام الكنيسة ،راقبت من بعيد كيف استقبلنها وقمن بحضنها وكيف غاصت بينهن وأفلتت في البكاء والنحيب على نحو أدهشني ،فهي لم تبكي هكذا حتى في الجنازة .

دقت أثناء ذلك أجراس الكنيسة حداداً على جدها أبي محمود كما علمت منها لاحقاً .

أدهشني الحجم الهائل للكنيسة التي نقش على يمين بابها تاريخ وقرار بنائها الذي أصدرته الحكومة الفرنسية في الثلاثينيات ،وأسماء البنائين من أهل البلدة وبعض العمال الفرنسيين الذين جلبوا لهذا الغرض .

وبما أنني كنت قد نشأت في بيروت منذ صغري مع والدين شيوعيين إلى حد التطرف ،فقد كنت من النادر جداً أن أزور ديراً ،وإن زرته يوماً فكان حكماً ديراً للروم الأرثوذوكس ،ولم يسبق لي وزرت ديراً كاثوليكياً .

كان الدين في بيتنا غائب تماماً ،ولم يكن له أي دور في رسم شكل حيواتنا المتقلبة ،والتي تبدو لوهلة أنها حرة لكنه في العمق رأي واحد وشكل واحد هو الذي يسود في النهاية ،حتى في نظرة كل منا إلى النعيم ،الذي اختصر في أمور مادية بحتة .

الأمر الذي جعل منزلنا يفتقد إلى التعاطف الأسري ،وجعلنا نعيش حيوات زائفة في حريتها ،يربط بينها جميعاً الانتماء العائلي والاحتياجات المادية .

ولهذا السبب ربما لم أشعر بوحدتي إلا بعد أن صرفت كل ورثة والدي ،وبعد ان انتهت علاقتي بليلى نهائياً ،تلك العلاقة الطويلة مقارنة بعلاقاتي السابقة ،رغم أنها أسست على الشبق فقط .

وللسبب نفسه تضايقت عندما أنهت فيوليت بكائها أمام الراهبات على نحو مفاجئ كما أنهته صباحاً على مائدة الفطور ،لأنني حقاً كنت أرجو أن يطول بكاءها لأتمكن أنا من بلوغه ،وأذرف أخيراً تلك الدموع العصية التي يبعث على ذرفها الخواء والجهل الذي يكتنفني.

***

أمر غريب وجديد علي ماجرى في الاجتماع الصباحي في المدرسة التي هي عبارة عن بناء شاحب جدرانه متشققة ،يقبع في نهاية منحدر لايبخل عليها بوحله الذي يرسله ليملأ باحتها دوماً .

فبعد أن اصطف الطلاب بانتظام لا مثيل له ،وتجمع المدرسون متحمسين وكأنهم أمام حلبة مصارعة ،وكان في مقدمتهم الموجه الموجهة وقد حمل كل منهما في يده عصا من الخيزران وقطعة من خرطوم للمياه قصت وهذبت لاستعمالها في ضبط الطلاب الذين بدوا وكأنهم تماثيل متشابهين صفوا لأخذ جرعتهم اليومية من المخدر الذي يضمن بقائهم الآمن على الوضع ذاته .

لاحظت أن فيوليت كانت التمثال الوحيد الذي تجرأ على أن يتحرك ليحك رأسه ،وبدت وكأنها لاتكترث لكل من يقف أمامها ،فقد كان المدير هو والدها نبيل ،والموجه هو ليث ابن عمتها أم كلثوم ،وكل تلك الأساليب التي يستعملونها مفهومة وواضحة وربما تافهة في نظرها .

عندما وصل بضعة طلاب متأخرين على الاجتماع الصباحي ،أمرهم الموجه ليث بالجري حول بناء المدرسة خمس مرات ،وعندما اعترض أحدهم طالباً تفسيراً لهذا العقاب القاسي ،غضب الموجه وهجم عليه وراح يهيل عليه الضربات بخرطومه مثل ثور هائج ،وقال له أنه سيخبره بالسبب بعد أن ينفذ الأمر بصمت وخضوع تام دون أن يرف له رمش .

ثم قامت الموجهة بتحذير الطلاب من الخوض في نقاشات دينية ،منذرة إياهم بسوق من تسمعه إلى مخفر الشرطة لتأديبه ،كانت امرأة ضخمة الجثة ملامح وجهها وحشية ،وقد عقصت شعرها الخفيف للغاية بحلقة مطاطية وشدته بإحكام نحو الخلف .

لاحظت فيوليت وهي ترمقها بنظرة ازدراء ،وقد احمر وجهها من الغضب والعجز .

دقت أثناء ذلك أجراس الكنيسة مجدداً من أجل أبي محمود ،وتساقطت بضعة قطرات من المطر ،دفعت بالموجه إلى أن ينهي العقوبة على نحو فجائي ،وولج الطلاب بانتظام إلى الصفوف ،والموجهة تصرخ في وجوههم : ((هيا دون أن ترفسوا كالبغال !)).

وعندما مرت فيوليت بجانبها حدقت فيها بعينين غاضبتين ،لكن الموجهة لم تنتبه لذلك .

بعد أن دخلنا إلى غرفة المدرسين استدعى الموجه فيوليت ،وأخبرها بأنه يريد أن ينصحها بصفته ابن عمتها وليس موجهها ،وحذرها من إقامة علاقات صداقة مع الطلبة القادمين من القرى المحافظة و النائية المجاورة.

هزت برأسها موافقة على كلامه ،وبدت وكأنها استوعبته جيداً وسترضخ له ،لكنني لما ولجت صفهم ،وشاهدتها تضحك وتمرح مع مجموعة من الطالبات ذوات الأردية الطويلة المزركشة بالألوان الفاقعة ،أدركت أنها توقفت عن الإصغاء لأي أحد منذ زمن طويل ،أو ربما لم يعد لهم وجود مطلقاً في نظرها .

لكن ما أدهشني حقاً لما رأيت طالباً بينهم يدعى محمد ،تقاطيع جسده تشبه إلى حد كبير جسد ذاك الرجل الذي لمحته مع الفتاة بين أشجار الزيتون ،عندها عادت الشكوك تراودني حول فيوليت دون أي رحمة .

***

((أحتقرهم إلى درجة الازدراء ،جميع الطاقم المدرسي يشعرونني بالغثيان ،ولن أصغي لأي كلمة يقولونها)).

أجابت فيوليت على سؤالي لها عما ستفعله بشأن ما لقنت به ،وذلك في طريق عودتنا من المدرسة ،قالت ذلك وبصقت بصقة كبيرة على نحو أدهشني .

كان وجهها يطفح بالغضب وقد تماهى ذلك مع غضب السماء التي راحت تقذف بحبات البرد مثل طلقات نارية .

ولما سألتها عن محمد وعن طبيعة العلاقة بينهما ،قالت أنه حبيبها ،وأنها لا تخجل من ذلك وأردفت : ((لديه كثير من صفات جدي ،إنه قوي البنية ويحب العمل ،كما أنه يعاملني مثل جوهرته)).

قالت ذلك أثناء سيرنا أمام المؤسسة الاستهلاكية حيث تلقي زوجة عمها عزة خطابها اليومي على مسامع أهل البلدة .لذا أخفضت من صوتها عندما أدلت بتلك الجملة خشية ان تسمعها فقد كانت بمثابة جهاز لا يستهان به من أجهزة الرقابة على حياتها ،وكانت لا تستسيغها لا هي ولا شعاراتها المبتذلة .

لم أتجرأ على سؤالها إن كانت هي من رأيتها بين الحقول ،وخصوصاً بعد أن لاحظت أن الحزن بدأ يتسلل إلى وجهها ،ولما وصلنا إلى جانب دكان للبقالة ،دخلته لتشتري البسكويت وغزل البنات ،مبررة أنها الأشياء الوحيدة التي ستخفف من حزنها على جدها .

راقبت أثناء انتظارها شرفات البلدة العتيقة والتي بدت كلاسيكية للغاية وغير لائقة بالزمان الصدئ الذي تعيشه البلدة .

صادقت فيوليت على انطباعي هذا ،وقالت أنها تعيش حياتها دون أن تحتك بالرداءة .

قالت ذلك ونحن ندلف المنزل ،ثم سارعت دون ان تكترث إلي نحو المطبخ لتساعد عمتها وحيدة وهي تشكل أقراص الكبة ،الأمر الذي فاجئني أيضاً .

صعدت إلى غرفتي لأبدل ثيابي ،وخطرت ليلى في بالي دون سابق انذار ،تذكرتها في إحدى أوضاعنا الجنسية البوهيمية ،راودني عندها شعور غريب بالحزن ،ورغبة في إخراج رأسي من النافذة .

أخرجت رأسي من بين القضبان الحديدية للنافذة ،ورحت أراقب البلدة ،كانت الغيوم قد انحسرت ،وراحت الأوراق المبتلة لشجرة الجوز المقابلة لنافذتي تبرق في عيني كصورة ليلى ،بينما تسللت في أنفي رائحة بخور من المدفن المجاور .

سمعت صوت شجار بين أطفال قادم من منزل مصطفى الذي شعرت بتفاهته امام هذا الصرح الذي أقطنه ،ثم رأيته يترجل من سيارة فخمة لكنها وسخة ،برفقة صاحب مطعم البلدة والإمام .

نادى نبيل علي أثناء ذلك لتناول الغداء برفقته وشقيقاته وابنيه ،اعتذرت عن ذلك لأنني حقاً كنت فاقداً للشهية تماماً ولم أكن أرغب سوى بشيء واحد أن أنام طويلاً وبعمق شديد .

***

رافقني التفكير في ليلى حتى في أحلامي ،إذ رأيتها ونفسي نتكلل في كنيسة البلدة ،وبدلاً من أن يسألنا القس ذو الوجه الأصفر والعينين الزرقاوتين المؤطرتين بهالتين من السواد ،عن

رأينا في الزواج ،طلب منا ان نتوب عن حيواتنا الضالة السابقة وأخذ يصرخ :توبا ،توبا فالظلام الأبدي قادم ..

استيقظت عند هذا الحد من الحلم ،بينما كانت السماء تمطر بغزارة في الخارج ،والظلمة قد اكتسحت الغرفة ،مغيبة كل تفاصيلها بما فيها اللون الأبيض الناصع لزهرة النرجس .

نهضت وارتديت ثيابي عازماً على المضي إلى خيمة التعزية المخصصة للرجال ،وبعد أن نزلت الدرج الحجري شاهدت شقيقات نبيل وفيوليت يجلسن صامتات في فناء المنزل مع مجموعة من النسوة ،وكان بينهن أيضاً راهبتين جالستين إلى جانب فيوليت وخديجة.

ألقيت التحية عليهم واستأذنت بالخروج ،كان البرد قارساً في الخارج والمطر قد توقف ،سمعت خوار أبقار عال قادم من الاسطبل المجاور .

سرت باتجاه خيمة التعزية ،كان ليل البلدة هادئاً ولمعت نحو الغرب أضواء سيارات تمشي ببطء ،بينما كان القمر غائباً في السماء خلف الغيوم .

دخلت خيمة التعزية التي لم تكن مكتظة بالكثير من الرجال ،دعاني ليث موجه المدرسة للجلوس بجانبه متحمساً لذلك ،سألني فيما لو كنت مرتاحاً في البلدة ،وعرض علي خدماته ،ثم وعدني بأنه سيدلني على طرق عدة لكسب المال في هذه البلدة التي وصفها بالكنز الخفي !

بعدها سحبني من يدي ومضى بي حيث يجلس كل من مصطفى وجورج صاحب المطعم ،وبعد أن قدمني إليهم ،اقترح على الجميع إقامة عشاء للتعارف في مطعم جورج أو منزله.

هززت رأسي بالموافقة ،ربما لأنه كان لدي احساس ما في داخلي أنه الخيار الوحيد المتاح لي !

وبالفعل ركبنا سيارة جورج البيجو بعد أن أقفلت خيمة التعزية ،ومضينا إلى منزله في طرف البلدة إلى جانب أضخم معصرة للزيتون فيها .

كان المنزل كبيراً و قد بني حديثاً ،لكنه يخلو من أي ذوق فني ،وبدا وكأنه زريبة ضخمة لتربية المواشي ،تحيط به حديقة قاحلة تخلو من أي شيء .

(علينا ان نخبر رئيس البلدية بوجوب تزفيت الفسحة أمام منزلي من جديد)..قال جورج ونحن نعبر الممر المؤدي إلى المنزل .بعد ان دخلنا نادى جورج على امرأة مسنة تدعى أم خالد التي جاءت مسرعة ومرتبكة من المطبخ ،و قد بدا عليها أنها كانت غارقة في النوم ،وطلب منها ان تحضر صينية كبيرة من السمك المشوي على الفور ،وتجلب لنا من الثلاجة زجاجات الويسكي والنبيذ .

مر الوقت دون أن ننطق ببنت شفة ،سوى بضعة نكات سخيفة أطلقها مصطفى واقتراحه المفاجئ بإعطائي دروساً خصوصية لجيمي ابن جورج ،الذي كان بعمر فيوليت تماماً .

ثم أردف ممازحاً : ((ولكن ذلك قد يمكنه من أن يصبح منافساً حقيقياً لابنة أخي فيوليت ،إنها عبقرية)).

ضحكنا بشكل هستيري ربما بتأثير الكحول ،ولاح لي وجه فيوليت في صينية السمك المشوي .

بعد أن ثملنا ،حكى لنا مصطفى بحزن عن طفولته القاسية ووالده الحازم ،،وعن نومه في البراري في ليالي الشتاء القاسية ليحرس قطيع المواشي وهي ترعى .

ثم التفت الجميع نحو جورج الذي راح يحدثنا عن حبيبته التي حرماه منها والداه المتسلطان ،والتي تزوجت وسافرت إلى لبنان و قتلت هناك في الحرب .

بينما بقي الموجه صامتاً ،متحفظاً عن البوح بأسراره ،واكتفى بذرف دموع حارقة من عينين أشبه بجمرتين متوقدتين .

شعرت أنني أحب تواجدي هنا ،وكأنه انتماء ما ،وخلق هذا في نفسي طمأنينة مشوبة بشيء من القلق ،ورافقني هذا الشعور أثناء عودتي ومصطفى إلى المنزل بعد انتهاء تلك السهرة برفقة سائق جورج ،إلى أن كسره حزن فيوليت الذي بدا على وجهها وهي تفتح لي الباب .

عندها سارعت في سؤالها عن سببه ،فأخبرتني أنها كانت تزين صورة جدها الضخمة التي أرسلت اليوم من المدينة بالشرائط السوداء ،وعلقتها في صدر غرفة الضيوف بجانب صورتي والدتها وجدتها المتوفتين ،وأن بقرته المفضلة قد ماتت اليوم أثناء الولادة .

ولجنا معاً إلى غرفة الضيوف كي تريني الصورة ،تأملت تلك الصورة التي غطت نصف الحائط تقريباً ،وبينما كان إحدانا ثملاً والآخر مكدراً ،كان أبو محمود يبتسم ابتسامة أبدية ملؤها الطمأنينة .

_2_

((فيوليت))

أغني وأنا جالسة على حائط المدفن أتأمل النجوم ،وفي يدي كرة سرو ..

أنزل عن الحائط ،يجذبني صوت قادم من الاسطبل ...

أغني وأتبعه ...

أراقب العجل الحديث الولادة من وراء الشبك وهو يموء بوهن بجانب أمه الميتة وأغني ..

تخبرني ذاكرتي أن أمه المفضلة عند جدي .. فأغني ..

أشعر بالبرد فألوذ المنزل وأنا أغني ..

أزين صورة جدي بالشرائط التي على شكل زهور سوداء وأغني ..

أتأمل ابتسامة جدي وأغني ..إلى أن أغفو إلى جانب مدفأة الحطب ..

يوقظني صوت طرق على الباب ،أنهض وأفتح للمدرس جميل المستأجر الجديد عندنا ،والذي ينظر باستغراب إلى أي شيء ..

يلقي علي التحية ورائحة الخمر تفوح حتى من عينيه ،يسألني عن سبب حزني ،أجيبه دون أن أجرأ على طرح السؤال عينه عليه .

يمشي بتثاقل بقميصه الأبيض المزهَر والمجعد ،وبنطاله الدجينز الباهت المنزلق عن مستوى خصره .يتعثر بحوض زهور من أحواض عمتي سارة ،ثم يتمدد على ظهره ويدندن أغنية الليل يا ليلى يعاتبني ..

أساعده على النهوض ،أسنده على كتفي ،وأشعر بالغثيان من رائحته ،أقوده إلى غرفة الضيوف بناء على طلبه فقد رغب في رؤية صورة جدي ..

يقف وأطرافه تهتز أمام صورة جدي ويسهب في تأملها ،ألاحظ عداءً في نظرته ولا أجد تفسيراً لذلك ،يغضبني هذا فآمره بالصعود إلى غرفته لأن الوقت قد تأخر .

ينظر إلي بعينين دامعتين ،ثم يرضخ لأوامري على نحو يخجلني من نفسي .

أسارع إلى غرفة نوم عماتي ،وأندس إلى جانب عمتي وحيدة في سريرها الكبير ،أشتم رائحة عطرها ويزول عندها وخز رائحة الخمر التي ملأت منخري .

أفكر بغرابة ذلك المدرس وصمته ،ونظراته الغريبة إلي في الصف وكأنه يراقبني ،علاوة على صدمته لما أخبرته بأنني لا أكترث بأي من المدرسين و شكوكهم المرضية .

أحاول أن أتجاهل التفكير به ،فيقحم محمد نفسه ويتربع على عرش أفكاري فأبتسم ..

ألتفت إلى عمتي وحيدة ،وأطمئن بأنها نائمة ،فهي طوال تلك الأيام العصيبة التي مضت لم يرقد لها جفن .

أتأمل تقاطيع وجهها الأسمر ،لأستمد منها القوة ،يفاجئني صوت عمتي خديجة القادم من السرير المجاور وهي تنصحني بتلاوة سورة الإخلاص والنوم المبكر .

أفعل ذلك وأنا مغمضة العينين ،وأغفو ..

في الحلم أرى جدي وجدتي وأمي وهم في النعيم ... وأنا أغني لهم ..

***

من صباح الغد ،استيقظت على ضوضاء نقل أثاث من شاحنة أمام المنزل ،خرجت إلى الفناء وتسللت رائحة ندى الصباح إلى أنفي .

كانت عمتي وحيدة تشرف على نقل أثاث العائلة البدوية التي جاءت لغرض العمل في قطاف الزيتون الذي تزامن قدوم موسمه مع وفاة جدي .

هرعت العاملات التي كنت أنتظرهن كل عام إلي ،سلمن علي وقبلنني بمودة كبيرة ،واسترسلت أنا في تأمل أسلوب لباسهن ذي الألوان الصاخبة والمكتظ بالأفكار الفنية المتعددة والمطبقة بإتقان مع بذل جهد لا يستهان به .

أحببت أزياؤهن وبعثت بشرتهن السمراء و أعينهن المشبعة بالدفء في نفسي شعوراً بالارتياح دفعني إلى ضم إحداهن والبكاء في حضنها بعد أن أعلمتها بخبر وفاة جدي .

دعوتهن بعدها للفطور برفقتي ،قمت بسكب حليب طازج كانت عمتي سارة تغليه في قدر نحاسي كبير ،وأحضرت الكعك بالسمسم من الخزانة وقدمتها لهن .

أدخل والدي العمال الرجال ،كانوا جميعاً نحيلين ذوي سحنات سمراء ولامعة ،وقد ارتدى كل منهم جلابية رمادية اللون وشماخاً أحمر اللون وعقالاً.

أثناء تناول الفطور دخل المدرس جميل وحدق بي بعينين حمراوتين محاطتين بهالتين مجعدتين وسوداوتين وأمرني بلهجة وجدتها وقحة قليلاً بأن أرافقه إلى المدرسة ،تأذنت من صديقاتي البدويات اللواتي أخذن يدعون لي بالتوفيق .

مشيت والمدرس جميل حتى منزل الجد بطرس دون أن نتفوه بحرف أو حتى أن ننظر إلى بعضنا ،وعند ذلك توقفت وطلبت منه أن ينتظرني ريثما أدخل منزل الجد بطرس لأعيد له روايات ألبير كامو التي استعرتها من مكتبته وأطلب منه أن يسمح لي بالاحتفاظ برواية (الغريب) ، فراح يرمقني بنظرة اندهاش غريبة .

قرعت الجرس فظهرت لي الجدة أنطوانيت من خلف القضبان الحديدية للباب الحديدي الضخم المحاط بشجيرات الدفلى وقد ارتدت معطفها الطويل الذي بلون أزهار الدفلة

،ووضعت على عينيها نظاراتها الطبية السميكة وحملت في يدها لوحاً كبيراً من الشوكولا التي تصنعها بنفسها .

رحبت بي بحرارة ،ثم تناولت الكتب مني وزجت في كفي لوح الشوكولا ،طلبت منها أن تسمح لي بالاحتفاظ بالرواية ،فأجابني الجد بطرس الذي كان جالساً على الشرفة يدخن غليونه ويقرأ في الجريدة : ((إنها لك ياعزيزتي)).

رفعت رأسي باتجاهه وشكرته مبتسمة .صرخ عندها المدرس جميل متذمراً وامرني بالاستعجال ،نظرت الجدة أنطونيا إليه من فوق نظاراتها نظرة دهشة يشوبها شيء من الغضب.

ودعتني ووعدتها بمرافقة عمتي وحيدة إليهم في أقرب فرصة ،ثم تابعت سيري إلى جانب المدرس بعد أن اكتسحني شعور بالتوتر تجاهه .

سألني عن سر اهتمام تلك العائلة بي ،فأخبرته أنه ليس لديهم أطفالاً وأنني تربيت منذ صغري في كنفهم فقد كانت عمتي وحيدة تصطحبني دوماً إليهم ،ولهم الفضل في تعلمي السريع للقراءة والكتابة وفي قدرتي على الانضباط الدراسي .

ثم سألني بنبرة استعلاء :وهل تفهمين كامو عندما تقرئينه؟!!

صعد الدم إلى وجنتي وشعرت بسخونة في أذني من جراء كبت انزعاجي الشديد .

لم أجبه بتاتاً على سؤاله هذا ،وتابعنا مسيرنا صامتين حتى وصولنا مبنى المدرسة حيث توقف فجأة وطلب مني أن أسبقه ريثما يدخل قليلاً إلى الكنيسة ،دفعني الفضول لأن أنتظره ،خرج بعد هنيهة غاضباً ،قال بأن القس منعه من الدخول بسبب رائحة الخمر التي تفوح منه ،وأخبره بأن ذلك يسيء لحرم الكنيسة .

ثم ولجنا المدرسة ،والتقينا عند الباب بجيمي ذاك الشاب الثقيل الظل والذي يضحك كالأبله ويثرثر بشكل متواصل عن أحذيته الخارقة الباهظة الثمن المجلوبة من تركيا خصيصاً له .

عندها انفصلت عنهما واتجهت صوب صديقاتي اللواتي كن يرمقنني بنظرات غير مفهومة وهن يثرثرن عن شيء ما .

قرع الجرس بعدها واجتمع المدرسون للاجتماع الصباحي ،مبتسمين ونشطين كالعادة وكأنهم يظنون أنفسهم آلهة تقود البشرية نحو المجد من خلال طقوسهم العظيمة .

رمقتني تلك الموجهة الفظة بنظرة غريبة وابتسمت بخبث ،ثم وجهت نظرات ملؤها الضغينة لمحمد .

فهمت سر تلك النظرات بعد انتهاء الاجتماع الصباحي لما طلب ابن عمتي الموجه _ذلك الشخص الموتور_ من محمد أن يخرج عن الرتل ويقترب منه .

تقدم إليه محمد بكل ثقة بصدره الواسع الشامخ ،لكن ابن عمتي باغته ودفعه بقوة فسقط على الأرض وراح يركله بقدمه دون أي شفقة مثل يهودي كما تقول عمتي خديجة .وراح يصرخ : ((لقد حذرتكم من قبل أن تتعرضوا للطالبات ...)).

عندها راحت الموجهة تردد : ((لقد جاءتنا شكوى أن محمد قد اعترض طريق فيوليت و تحرش بها لفظياً بألفاظ وقحة وبذيئة !)).

صرخ هنا محمد وهو يجهش بالبكاء : ((والله غير صحيح ،أنا أحبها نعم ،فكيف لي أن أؤذيها ؟)).

عندها انفجر ابن عمتي غضباً وراح يركله بقوة أكبر على وجهه ورأسه حتى سالت الدماء من أنفه ،ثم راح يهدد الجموع بأنهم سيلاقون المصير ذاته لو بدر منهم هكذا سلوك .

تملكتني حينها رغبة بوجود أبي بجانبي ،وخمنت أنه لو كان هنا اليوم بصفته المدير كان ليردع حدوث هذا الأمر ،ولم أكن متأكدة من هذا التخمين ولم أعلم على أي أساس بنيته.

ورغم كل ما عاناه محمد أمامي من أجلي إلا أنني لم أشعر قط بالشفقة أو الحزن ،إنما راودني شعور بالنشوة أشبه بمشاعر خائف قد سيطر على مخاوفه . لذا فاجأت جميع من حولي بصمتي ،حتى أنني لمحت في عيني محمد نظرات شكوك حولي ،ثم رفعت رأسي

نحو الأعلى ونظرت إليه بعينين مفتوحتين على وسعهما بينما كانت مخيلتي ترسم طريقي معه التي بدأت أراها بوضوح منذ اليوم .

***

قادني ابن عمتي إلى غرفة الموجهين بعد الاجتماع الصباحي وأجرى معي تحقيقاً في موضوع حب محمد لي ،فلم أنبس بحرف أمامه وبقيت صامتة لأكثر من نصف ساعة حتى ضجر مني وسمح لي بالالتحاق بصفي .

في الصف تسمرت في مكاني مطأطأة الرأس طوال اليوم ولم أنظر في وجه أحد ،ولم يكن ذاك سببه الخجل إنما لأمنح نفسي فرصة الاستمتاع بالحالة التي تمر بها بمفردي .

ورغم ما شعرت به من ضعف في هذه الوحدة المؤقتة ،إلا أن هذا الضعف كان لذيذاً ،مما سمح لي أن أحتملها حتى نهاية اليوم .

وعند الانصراف قاطعت تلك الوحدة لبرهة لأنظر عاتبة في وجه المدرس جميل ،الذي كدت أجزم أنه من وشى بي .

رافقني كالعادة في طريق العودة ،مشينا صامتين ثم نادت إحدى الراهبات علي وصافحتني بحرارة وضغطت على يدي بشدة وكأنها تشير إلي أنها على علم بكل ماحدث .

مشينا بعدها مثل غريبين حتى وصولنا المنزل ، أحسست أنه كان ينتظر مني كلاماً ما ،لكنني لم أمنحه أي حرف .

لما وصلنا كانت عمتي وحيدة تنتظرني أمام الباب وتيار من الهواء يحرك وشاحها الأسود ويغير مسار دمعتها الجارية فوق شامتها الكبيرة السوداء المنطبعة على خدها .

ما إن رأتني اقتربت مني وسحبتني من يدي بقوة ،حاول المدرس جميل أن يهدئ من روعها لكنها لم تكترث إليه .

قادتني عبر فناء المنزل ،علق كم سترتي بالفلة فتكسرت أغصانها لما حررته منها ،وفوجئت بوجود عمي محمود الملقب بالعاصي الذي انضم إلى عمتي وحيدة وأمسك بي وهو يكز على أسنانه ،وزجني في غرفة عمتي التي أغلقت الباب وأقفلته بالمفتاح .

جلست على أحد الأسرة غير مستوعبة .آلمتني يدي فاكتشفت انني قد جرحت نفسي .

سمعت صوت عمي يحيى الذي يعيش في المدينة ،وهو يقول لعمتي وحيدة أنه من الضروري السيطرة على الوضع في أسرع ما يمكن ،وصوت زوجته التي لا تزور البلدة إلا نادراً وهي تنصحهم بالهدوء والتروي لكونهم يتعاملون مع مراهقة .

فتحت النافذة فرأيت المدرس جميل يقف ساكناً على الدرج الحجري المقابل ،ولما رآني نظر إلي بعطف ،وبادلته بنظرة ملؤها الكراهية .

طأطأ رأسه هنا وصعد مسرعاً إلى غرفته ،وظهر لي أمام النافذة عمي محمود الذي راح يصرخ : هيا أغلقي النافذة ،بدك تفضحينا عشقانة واحد بدوي .

ثم انضمت إليه عزة زوجة عمي مصطفى وقالت :بدي خلي أخي يخفيه عن وش الأرض .

انفجرت هنا وصرخت في وجه عمي :هل جئت لترث جدي الآن ؟

عندها جن جنون عمي محمود وارتجفت أطرافه ثم أمسك بحفنة من التراب بين يديه ونثرها على وجهي عبر شباك النافذة ،حاول عمي يحيى تهدئته وأدخله غرفة الضيوف .

طلبت مني زوجة عمي يحيى أن ألوذ بالصمت ،ووعدتني أنها ستحررني من سجني .عاد أثناء ذلك والدي من خيمة التعزية و لما دخل المنزل التفت إلى النافذة التي أجلس خلفها ونظر إلي بعطف لم أشهده فيه من قبل .

اقترب من عمتي وحيدة التي كانت تجلس صامتة ومتوجسة على الأريكة العتيقة وسط الفناء ،وأخبرها بأن خيمة التعزية قد فصلت أجزائها ويتم الآن ترحيلها إلى صاحبها بعد انتهاء العزاء .

فأجابته : لقد تعجلت في ذلك ،قد نحتاجها اليوم فقد يتم دفني اليوم بعد هذه الفضيحة !لم يدلي والدي بأي رأي في ذلك ،وبدا وكأنه يحاول تجنب النقاشات الطويلة فيه .استدار

بعدها للهروب نهائياً من الموقف ،وصعد الدرج الحجري قاصداً غرفة المدرس جميل ،دون أن يلتفت إلي بتاتاً .

حط عصفور دوري على النافذة أثناء ذلك وراح ينقر الشبك ،بينما كان الألم يزداد في عيني من جراء التراب الذي دخلهما ،وأرغمهما على أن يفيضا بالدموع .

ولم أستطيع أن أحدد سبب بكائي بدقة ،هل كان التراب فقط ،أم أن رؤية الطائر وهوينقر الشبك جعلتني أدرك على نحو صادم أنني حقاً سجينة وعاجزة .

-٣-

((جميل))

لما فتحت فيوليت النافذة ورأتني واقفاً متسمراً في مكاني على الدرج الحجري أنتظر نظرة صفح منها ،أشحت بنظري عنها متخلياً عن رغبتي في معرفة مشاعرها نحوي ،ولم أكن قادراً على إيجاد سبب لذلك ،لكنني أستطيع أن أجزم بأنه لم يكن الشعور بالذنب .

لذا هربت من عيني فيوليت وصعدت إلى غرفتي هناك في العلية حيث يمكنني أن أصم أذني عن كل مايحدث في الخارج .

دخلت غرفتي وسارعت نحو مكتبتي لأنتقي كتاباً أشغل به نفسي ،اخترت رواية مرتفعات وذرنج لإيميلي برونتي وجلست إلى النافذة أقرأ فيها ،دون ان أكترث لأزهار النرجس الذي ذبلت جراء إهمالي لها .

جاء إلي نبيل بعدها وجلس صامتاً في وضعية تشبه تلك التي اتخذها عندما التقيته لأول مرة عند وفاة والده ،وتمتم ببضع عبارات بدا وكأنه يتقصد عدم إيضاحها لي ،من قبيل :لن أستطيع الوقوف في وجههم ،أنا أضعف من ذلك بكثير ..ربما تنجح ابنتي في أن تكون أكثر تمرداً وشجاعة مني .

انضمت إلينا بعد حين شقيقته خديجة ،كانت يائسة ،لكنها وللمرة الأولى نظرت إلي وتحدثت معي بشكل طبيعي دون أي خجل أو ارتباك .

جلست إلى جانب شقيقها وربتت على كتفه وكأنها تواسيه ،استفزتني عاطفية المشهد لذا أشحت بنظري عنهما وتأملت السماء عبر النافذة ،لكنني سمعتها تخبره بأنها لن تسمح لهم أن يجردوا فيوليت من مشاعرها مثلما فعلوا بها .

شعرت أن وجودهما لوقت أطول سيجعلني أشعر بالذنب ،لذا طلبت منهم المغادرة متحججاً بالرغبة في الراحة ،فغادرا متأبطين ذراعي بعضهما .

غفوت قليلاً ،ثم استيقظت مع رغبة شديدة في الخروج من هذا المنزل الذي بدأ يمسي عصياً على الفهم إلى حد الإرهاق .

تمشيت قليلاً باتجاه الحقول ،كانت الغيوم الوردية المحملة بالوحل تملأ السماء ،ووقت الغروب قد اقترب ،لذا عبرت من جانبي الجرارات والسيارات العائدة من قطاف الزيتون وهي محملة بالعمال البدويين ،بأصواتهم العالية البربرية المثيرة للاشمئزاز بالنسبة لي .

التقيت بمصطفى عائداً من المطعم ،دعاني إلى منزله لتناول العشاء برفقته وجورج صاحب المطعم وعائلتيهما ،قال بأنها فرصة لنا للتفاهم فيما يخص إعطاء دروس لجيمي .

قبلت بعرضه ورافقته إلى منزله ،وقبل أن نصل إليه بقليل سمعنا أصوات أبنائه وهم يتشاجرون ،وتسللت إلى أنوفنا روائح الزيت المغلي القوية إلى درجة لا تحتمل .

عندما حل الظلام جاء جورج برفقة زوجته وابنته ،وقد ارتدوا ثياباً عادية عملية لها اللون الأسود الحالك ذاته ،كما كان لهم مشية الرجل الآلي ذاتها .

بعد أن تعشينا صامتين دون الالتزام بأي آداب للطعام ،جلسنا لاحتساء الشاي ،بينما راح جورج يحدثنا عن ابنته وفضائلها ، والتي كانت تتصنع الخجل وحال دون نجاحها في إقناعنا بذلك ضحكتها البلهاء الفارغة المصحوبة بغرغرة عديمة الذوق .

شعرت بأن طبلة أذني ستنثقب من جراء سماعي لصوت الغرغرة تلك ،والذي تخلله أيضاً صوت شجار قادم من الطابق العلوي .

كنت أتجرع الويسكي بنهم كي أصل إلى الثمالة ،لكي أفقد جميع حواسي وشعوري بالذنب .ولما وصلتها انتفضت فجأة وعزمت بإصرار على المغادرة ولما حاول مصطفى وجورج أن يقنعاني بالبقاء ،صرخت في وجههما على نحو أثار دهشتهما بأنني مصر على الرحيل .

مشيت بتثاقل إلى المنزل وأنا نصف مدرك لما حولي ،كان باب المنزل مفتوحاً ،دهشت لذلك لكنني تناسيته فوراً .

صعدت الدرج الحجري بصعوبة ،ورحت ألعنه وأنا أحمل قدمي بيدي لأتمكن من اجتيازه .ولما وصلت غرفتي سارعت نحو الباب المؤدي إلى سطح المنزل ،عبرته مثل عبد يتحرر من قيوده .

جلست على أرضية السطح ورفعت رأسي إلى السماء الحالكة الظلمة ،وتنفست بعمق .

التفت باتجاه الحقول ،فلمحت أحداً ما يهرول بين الشجر .

خمنت أن تكون فيوليت قد استطاعت الهرب وهي الآن في طريقها إلى محمد ،لذا ركضت بسرعة إلى غرفتي ثم إلى الدرج الحجري وأنا أتعثر في كل خطواتي لأمنع خسارتي لها .

كان نزول الدرج صعب للغاية ،وكدت أقع على وجهي وأنا أتخلخل في هبوطي له وألعنه ،لأنه سيجعل فيوليت تضيع مني .

عندما وصلت الفناء شاهدت خديجة برفقة زوجة أخيها يحيى القادمة من المدينة واقفتان أمام الغرفة التي صارت سجناً لفيوليت وكان الباب مفتوحاً على وسعه ،ولمحت رزمة مفاتيح في يدي خديجة .

نظرت إليهما مقطباً حاجبي بينما رمقتاني بنظرتي ريبة وبدتا مرتبكتين للغاية .

بدأت هنا أفقد الوعي تقريباً ورغم ذلك خرجت من المنزل وهرولت وأنا أتمايل باتجاه الحقل المجاور .

لمحت فجأة فتاة ترتدي وشاحاً فوق رأسها ،خمنت ان تكون فيوليت وأن عمتها خديجة جعلتها ترتدي ذلك الوشاح لكي تنجح في الهرب دون أن يتعرف أحد إليها .

لحقت بها ورغم تعثري المستمر استطعت اللحاق بها وبدت وكأنها رأتني لكنها لم تحاول الفرار مني .

لما أصبحت على مقربة منها فاحت في أنفي رائحة غزل البنات التي تشتريها فيوليت عادةً ،وهطلت فوق رأسي قطرات ثقيلة من المطر المحمل بالوحل .

أمسكتها من ثوبها عند الكتف بكل ما أوتيت من قوة ،فصرخت وحاولت التحرر من قبضتي لكنها فقدت توازنها وسقطت فجأة على الأرض وبقيت دون أي حراك .

قرفصت بجانبها ،وفتحت عيني على وسعهما لأتمكن من رؤية وجهها الأسمر الممتلئ الذي لايشبه وجه فيوليت أبداً ،وكان خيط من الدماء يسيل فوق التراب خلف رأسها .

سمعت بعدها صوت خديجة وزوجة أخيها تقولان :قتلت إحدى العاملات ؟

هنا فقدت وعيي تماماً ،ولما استعدته وجدت نفسي في غرفة الضيوف وحولي خديجة وأخواتها جالسات ينتظرن عودة رشدي ،وعلى الحائط فوقهما صورة أبي محمود الذي لم يتعب من ابتسامته تلك التي جعلتني أشعر بغضب وحزن شديدين .

***

ماإن رمى الفجر بأول خيوطه حتى كانت العائلة بكاملها مجتمعة في غرفة الضيوف من أجل إيجاد حل لمشكلتي ومشكلة فيوليت .

كانت وحيدة قد أبلغت مصطفى أن يأتي برفقة زوجته لتكلم شقيقها الشرطي من أجل البحث عن فيوليت وإنقاذها من يدي ذاك البدوي كما وصفته ،ومن اجل أن يقلني معه في السيارة إلى مخفر الشرطة قبل أن يعلم أشقاء العاملة البدوية أنني من دفعتها ،عندها لن يتمكن أحد من أن ينقذني من رغبتهم العمياء في الثأر لشقيقتهم .

بدا على الجميع أن من واجبهم مساعدتي طالما كانت غايتي من كل هذا اللحاق بفيوليت دون أن يكترثوا لمعرفة سبب لحاقي بها .

جلس نبيل إلى جانبي مطأطئ الرأس وراح يضغط على فخذي كل هنيهة ويطلب مني أن أدعو بأن تنجو الفتاة من الموت وتستيقظ لتدلي بأن ماحدث ليس سوى حادث لا أكثر ، شعرت بالتقزز من استسلامه .

كان مصطفى وزوجته يتشاجران بسبب تأخر شقيقها ،لما انطلق صوت وحيدة وهي تطرد زوجة أخيها يحيى لتحريرها فيوليت ،وتهدد شقيقتها خديجة بأن حسابها معها سيكون عسيراً إن لم تعد فيوليت سالمة .

جاءت سيارة الضابط بعدها وطلب مني مصطفى أن أرافقه ،نهضت دون أي تردد وكأنني أرغب في نيل العقاب .

مشى الجميع خلفي ،ولمحت سارة تبكي وهي تدعو لي بأن يفرجها الله علي ،زرع كلامها الذعر في نفسي بدلاً من أن يريحني .

لما وصلنا إلى السيارة ،ترجل شقيق عزة منها وسلم على شقيقته وزوجها مصطفى واعتذر لهما عن تأخره ،وأخبرهما أن محمد معه في السيارة وأنه لم يعترف إلى الآن بمكان فيوليت لكنه سيجعله يعترف على طريقته الخاصة .

صعدت إلى السيارة ،ولم أفاجئ برؤية محمد جالساً فيها وكدمات زرقاء تملأ وجهه .لكنني فوجئت بوجود القس الذي راح يعلمني بسبب تواجده وهو ينظر إلي بعيون ناعسة : جئت لكي أكون مصدر قوة لك ،ولأصلي لله أن يخفف عنك ..

أشحت بنظري عنه واتخذت موضعاً بجانب النافذة الصغيرة الوحيدة في السيارة ،أسندت ذقني إلى حرفها ،ورحت أراقب الطريق من عبر زجاجها .

تحركت السيارة بنا ببطء شديد ،ولما وصلنا إلى جانب منزل الجد بطرس تمكنت من تفحص الأشخاص الجالسين على الشرفة ،ورأيت فيوليت تبتسم للعم بطرس وهي تحمل كتاباً في يدها ،وقد ارتدت معطف الجدة أنطوانيت الدفلي لكي تضلل الجميع عن معرفة

هويتها ،لكنني هذه المرة استطعت أن أجزم أنها فيوليت ،وما جعلني متأكداً ضحكتها المميزة التي كانت على رأس الأشياء التي عشقتها فيها .

الفصل الثاني:1991

_1_

((جميل))

بالرغم من أن مدة عشرة أعوام ليست بالكافية لأن تنمو أشجار السرو المقابلة لمنزل آل أبي محمود ،بالقدر الذي يجعل من نموها ملفتاً للنظر ،إلا أنه كان من الواضح جداً للعيان أن الظلال التي ترميها تلك الأشجار باتت أشد ضخامة وظلمة حتى أنها غطت المنزل بأكمله معيقة فرار وروده نحو النسيم .

وبالرغم من أن تلك العتمة قد جعلتني أضطر لإنارة الأضواء باكراً جداً في غرفتي المتواضعة ،إلا أنها كانت تبعث في نفسي طمأنينة لذيذة زيادة على الطمأنينة التي تزرعها في قلبي حالة الاستقرار المادي والأمان الذي أعيشه في حمى عائلة قوية ،على الرغم مما أخفيه من تعاسة.

كنت قد استيقظت في هذا اليوم الذي يصادف الذكرى العاشرة لقدومي إلى هذه البلدة ،على صوت الأغاني الفيروزية المعتادة ذاتها ،والتي تواظب عليها سارة تلك الفتاة التي تمر الحياة من امامها دون ان تلتفت لها وكأنها غير مرئية لدرجة أنني غدوت أيضاً أمر من

جانبها مرات كثر دون أن أنتبه ،حملت حقيبتي الجلدية اللامعة وهذبت ربطة عنقي بعد أن رتبت الفوضى التي تعج بها خزانتي المملوءة بالبدلات الرسمية والأحذية الجلدية التي أهدتني إياها هيلدا ابنة جورج صاحب المطعم و خطيبتي.

كانت حالة اليأس والإحباط التي عشتها طوال تلك السنوات قد دفعتني إلى الرضوخ لرغبتها في أن نصبح خطيبين ، تلك الحالة التي عشتها بعد خروجي من مخفر الشرطة في تلك الليلة إثر نجاة الفتاة من الحادثة وإدلائها بأقوال كاذبة عن سقوطها الذي زعمت بأنه كان من اعلى الدرج وليس بين الحقول وذلك لتنقذ نفسها من أيدي أشقائها ،والصدمة التي تلقيتها بعد أن علمت بتزويجهم فيوليت لسيف ابن عمها محمود الخارج عن سلطة المنزل وذلك لترويضها وحمايتها كما عبروا ،بعد اكتشافهم لفقدانها عذريتها ،واختفاء محمد بعد خروجه من المخفر .

مازلت أذكر ذلك اليوم الذي خرجت فيه من المخفر منهكاً ومسنداً محمد إلى كتفي، وهو فاقد للوعي تقريباً .

كان المطر يهطل بغزارة ،كنا نمشي دون أمل بأن نصل ،نمشي مع توقع يرافقنا بأننا سنسقط في أي لحظة .

انتظرنا مرور سيارة ما لتقلنا ،لكن مامن سيارة مرت إلا أن خذلتنا قوتنا وسقطنا غير مدركين لأي شيء .

استيقظت بعد زمن ،فوجدت نفسي فوق سرير جلدي في غرفة تعبق برائحة الكحول ،وكان أول مارأته عيني شامة بنية كبيرة في جبهة راهبة ترتدي زياً أبيض يخص الراهبات الطبيبات اللواتي يخدمن في المستوصف التابع للدير .

ابتسمت لي عندما رأتني وراحت تشد بقوة وإحكام قطعة من القماش حول يدي لتضمدها بيديها القويتين على نحو يثير الدهشة .

أخبرتني أن أحداً ما قد عثر علي على قارعة الطريق ،فقام بنقلي إلى المستوصف هنا،سألتها عن محمد فأخبرتني أنها لاتعلم شيئاً وأن الرجل الذي قام بنقلي لم يذكر لها شيئاً عن وجود شخص آخر .

قضت الراهبة بعدها الليل بأكمله بقربي تعتني بي ،وعند الصباح غادرت المستوصف عائداً إلى منزل آل أبي محمود .

مررت بجانب مجموعة من الشبان الذين كانوا يزينون شجرة عيد ميلاد ضخمة في ساحة البلدة ،كان الميلاد قد اقترب ،وشعرت بأنه ميلاد جديد لي أيضاً !

لما وصلت إلى المنزل كانت سارة تقوم بما تقوم به اليوم ،تغلي الجبن لتعقيمه وتستمع إلى الأغاني الفيروزية ،فتحت لي الباب واستقبلتني بعاطفة مبتذلة لكنها حقيقية .ثم أجهشت بالبكاء وهي تخبرني عن تزويج فيوليت لسيف ابن عمها عنوة .

حملقت حينها بزهرة البنفسج وسط الفناء ،ثم أدرت ظهري لها وكأنني لم أكترث لما قالته وصعدت إلى غرفتي ،وهناك بكيت لأول مرة في حياتي .

منذ تلك اللحظة بدأت في الخضوع والقبول بما يعرض علي ،وتجاهلت كل ما لايخصني حتى أنني تناسيت فيوليت ،كنت أراها في المدرسة ،أوعلى المائدة إلى جانب زوجها الضخم والعابس دوماً.

ولما غادرت فيوليت البلدة لستة اعوام لدراسة الطب في المدينة ،لمت نفسي عن عدم منحها فرصة لسبر مشاعر فيوليت تجاهي أو معرفة نظرتها عني .

واليوم وفي الذكرى العاشرة للقائنا ،مررت بجانب عيادتها والتي هي عبارة عن ملحق بني خصيصاً إلى جانب المنزل لجعله عيادة خاصة بها ،لتحافظ على بقائها الآمن في ظل حماية هذا المنزل .

لحظة مروري بجانب نافذة العيادة المفتوحة على مصراعيها لمحتها تدخن بحزن كعادتها ،وتحتسي القهوة بشراهة ،وكانت قد جمعت شعرها على شكل كرة فوضوية وعقصته من الخلف ،وبدا جفنيها ثقيلين وشاحبين .

كان من الواضح أنها تعيش حياة مضجرة ،وأنها لاتحب زوجها لذا لم تنجب طوال تلك السنوات ،وعاشت في اغتراب ذاتي ولم يسليها سوى قدوم أصدقاء قدامى لها إلى العيادة

من أيام الجامعة ،عندما دفعها تمردها إلى الانتماء لحزب يساري والخوض في سلك السياسة ،وفشلت جهودهم تلك بعد تراجع الاهتمام بتلك الأفكار ،خصوصاً بعد أن تراجع دور الاتحاد السوفييتي وظهرت بوادر سقوطه .

وكانت في العادة تجتمع كل أمسية في عيادتها معهم ،وتطول ساعات النقاش الأمر الذي يثير غضب زوجها وعمها مصطفى ،فالأول كان يرى أن سيدة مثلها حري بها الاعتناء بمكانتها الاجتماعية وعدم الهبوط إلى تلك المستويات من البشر الذين لاتنتمي إليهم ! بينما كانوا بالنسبة لعمها مصطفى مجرد واهمين ،هو الذي كان يرى الشيوعية مصطلحاً طوباوياً وتكاد تكون وهماً إلى درجة أنه كان دائم السخرية من الشيوعيين الفاشلين كما كان يسميهم.

لكن فيوليت لم تكترث لكل هذا كعادتها ومنذ سنوات لم تتغير ،كان جل ماتغير فيها هو ضحكتها التي كادت أن تختفي مع مرور الزمن .

كنت قد مررت بجانب عيادتها اليوم على أمل أن تحدث معجزة و تكسر ليوم واحد ذاك الحزن الذي يملأ جفنيها .لكنها بدت وكأنها تتماهى مع عمتها سارة و تصبحان معاً مثل شجرتي سرو لا يغيرهما الزمن .

عندما عبرت شوارع البلدة أيقنت أنها أيضاً لم تتغير ،الأعلام الورقية المرفرفة ذاتها ،والأناس الذين عادوا إلى قناعتهم الشافية ،جالسين في بيوتهم الآمنة بعد أن اكتشفوا أن الصمت ينفع حلاً ،وأن أي نوع من السلطة هو ملك للقوي في هذه البلدة.

كان الجد بطرس ربما لم يقبل بخيار العيش بصمت كالبقية ،وفضل أن يرحل عن هذا العالم تاركاً مكتبته وحيدة لا يكترث بها أحد .

لما مررت بجانب منزله ،لاحظت على زوجته أنطونياً تغيرات كثيرة ،من بينها نحولها الشديد وتلك النظرة اللامبالية بأيشيء في عينيها ،ومعطفها الدفلي الذي استبدلته بمعطف زيتي ،طالما أن الألوان لم تعد مهمة في زمن صمت فيه كل شيء ،والجمال والفضيلة احتكرا للقوي فقط .

كما احتكر كل من مصطفى وجورج الثروة لهما ،ووضعوا أسسهم الخاصة للفضيلة في هذا العالم ،ليصنفوا الناس إلى جيد و سيء ،وحتى إلى عاقل أو مجنون .

لذا كانت فيوليت وأصدقاؤها في نظرهم واهمين و سذج ،وأن من عاد إليهم منهم راضخاً لقوانينهم هو العاقل الذي حظي أخيراً بالحقيقة المطلقة والنعيم .

بالنسبة لي لم أعلم مع أي منهم قد أصنف،وربما كنت مثل بقية الناس في هذه البلدة ،حيادياً مقابل لقمة العيش ولو بشيء بسيط من الكرامة .

كنت كعادتي طوال تلك السنوات ،أشي لهم بمن أشك في امتلاكه لأفكار لا تناسبهم ،دون أن أخشى من أن أخسر شيئاً يستحق الخوف من خسارته مثل فيوليت .

وشيئاً فشيئاً أصبحت حياتي مفصلة على مقاس طموحاتهم ومجدهم ،ولأكن صادقاً من أجل تلك الجرعة الملائمة لي من الطمأنينة .

وإن كنت عبر تلك السنوات قد أسهمت في ازدياد نفوذهم ،في أنني مثلاً صنعت من جيمي شخصاً ناجحاً ليتسنى له السفر لإكمال دراسته في مجال الإدارة الفندقية في أفضل الجامعات الأوروبية ليعود إلى البلدة و يزيد من عظمة صرح والده ويحوله إلى فندق لامع .

واليوم وكما كل الأيام ،كان علي أن أقوم بوظيفتي اليومية في منحهم قوتهم اليومي من التبجيل ،بأن أعتني بأولاد حلفائهم في المدرسة ثم ألا أتخلف عن موعد الغداء مع خطيبتي هيلدا ،ثم ان أقضي ساعات الليل في إسلاء والدها والاستماع إلى قصص نجاحاته وماضيه المليء بالصعوبات .

ولأعود في آخر الليل ،إلى منزلي الآمن وأراقب حلمي البعيد فيوليت ،وهي تضحك بإفراط مع أصدقائها المتحلقين حولها في عيادتها ،ثم أصعد إلى غرفتي وأنام وفي قلبي حزن صغير

_2_

((فيوليت))

من الصعب أن أخمن اللحظة التي صحوت فيها بشكلٍ نهائي ،من نومي المتقلقل كعادته ،والذي يتسلل إليه ليعكر صفوه صوت التأوه الذي ينبثق من داخلي والممزوج بخوار البقر القادم من الاسطبل وبصراخ زوجي الليلي النابع من أفعال اقترفها في الماضي و النوم يذكره بها ،و يفضح ندمه .

ولأن تلك الأصوات كانت تتركني في حالة مابين الغفو والصحوة ،فقد كنت ألزم سريري لساعات ربما قبل أن أنهض منه ،أتقلب فيه وأفكر تارة وتارة أبكي بصعوبة ،أو أغمض عيني لبرهة لكي أنفصل عن هذا العالم قليلاً وأنصت إلى ذاك الفرح القديم الذي خاصمني منذ زمن طويل ،أو التأوهات الكثيرة لأصدقاء قدامى سلخوا من حياتي فجأة وتواروا عن الأنظار .

نهضت من سريري دون أن أنظر إلى تلك الكذبة التي ترقد بجانبي ،وتأملت وجهي في المرأة ولاحظت بروز ملامحي وعظام وجنتي وكأنه الغضب المتراكم فيّ يثور ،ثم تسللت كعادتي إلى غرفة الضيوف لأتأمل صورة جدي ،التي لم أتخلف عن تأملها طوال تلك

السنوات بالرغم من أن الدافع لذلك قد تغير مع نموي ،و تبدل من الإعجاب إلى الامتنان ربما .

فمع نضوجي كنت قد خسرت ذاك الاعجاب بشخصية جدي ،ربما بسبب شعوري بنزوعه نحو البرجوازية ،بالرغم من أن ذاك النزوع كان ضئيلاً على نحو لم يقودني فيه إلى نقده أو كراهيته .

وكان ثمة سبب آخر يمنعني من كراهيته ،هو أنني مازلت أقع في حب رجال يملكون من خصاله الكثير ،ولم يشكل زواجي من تلك الكذبة زوجي عائقاً يمنعني من أن أحب بعد أن خسرت محمد ولهثت خلفه أبحث عنه ولم أحظى سوى بالخيبة.

فقد كان زوجي يزيد ذاك الفراغ العاطفي في داخلي بذلك الدور الذي يلعبه في علاقتنا الجنسية ،حيث كان يظن ربما بأنه لما حظي بي استولى على كرسي العرش التي تمنحه السلطة المطلقة بأن يسيطر على جسدي وينظر إليه متعالياً ،يحتقره أو يدلله كيفما يشاء ،وهو الذي يحتفي دوماً بأفكاره الحضارية كما يسميها ويطالب بملاحقة الأصوليين وهو هنا في علاقته الجنسية يؤمن بامتلاك الرجل للمرأة وقوامته عليها !

في الليلة التي تزوجت منه فيها ،كسرت مرآتي ولم أعد وأشتري مرآة أخرى إلا بعد زمن طويل ،أو بالأحرى إلى أن تعرفت على كارلوس ،الرجل الوحيد الذي أحببته بعد محمد .ربما كسرت مرآتي في الماضي،لكنني اليوم عدت لأرى نفسي في المرآة ليس لأختبر جمالي

وإنما لأن جسدي أصبح جديراً بأن يرى بعد أن عومل كما يستحق أن يعامل به جسد إنسان.

جاء كارلوس إلى جسدي ليعيد وجوده ،جاء إلى مسقط رأس والديه وسكن في منزل جديه ،ذاك المنزل المختفي خلف كرمة ضخمة بجانب الدير ،والذي كانت عجائز البلدة تسردن قصصاً عن صاحبته الفرنسية ابنة الأكابر التي تزوجت من ذاك الإسكافي المعتوه بعد أن أعدم زوجها الضابط الفرنسي الخائن الذي سرب معلومات للثوار الذين يقاتلون مع ابراهيم هنانو عن مكان الملهى الليلي الذي يتجمع فيه الضباط الفرنسيون ليلاً للترويح عن أنفسهم.

كان كارلوس يقول أن روح التمرد والرغبة بالرفض إن لم يكن قد ورثها عن روبسبيير قائد الثورة الفرنسية فإنه حتماً قد ورثها عن جده ذاك الذي اعتنق الإسلام على حين غفلة وانضم إلى ثورة ابراهيم هنانو فقط لأنه وجد أن ممارسات الجيش الفرنسي تتناقض وتربيته الكاثوليكية .

تزوجت بعدها جدته من ذاك الإسكافي الذي فتح لها منزله وهي حامل ،وأنجبت والد كارلوس الفرنسي الذي نشأ نشأة عربية و كبر وأمسى مدرساً للغة العربية وشاعراً ،لكنه كن هادئاً ورصيناً ،ولم يمسه سحر التمرد الذي مس كارلوس ،وقاده إلي ،لأتعلق به ويلحق بي إلى بلدتنا حيث لقاءاتنا السرية الليلية في عيادتي ،بعد ان نودع أصدقائنا القدامى ،ونستلقي على السرير الجلدي تحت صورة جدي ليدل كارلوس جسدي على وجهة الوجود من جديد.

كان يقول أن أكثر ما يجذبه إلى جسدي هو غموضه وكأنه يخرج من تربة أشياء جميلة مدفونة ،وأنه لم يعتد على ذلك من قبل مع الفتيات اللواتي عرفهن ،وكان معظمهن من الشقراوات الضخمات و الشرسات .

كانت نشأته في منزل يقع على شاطئ الروشة في بيروت ،وهروبه من العادات الارستقراطية التي فرضتها جدته الفرنسية عليهم إلى الشاطئ دوماً قد منح جلده سمرة لاتينية جذابة إلا أنه كان قد ورث الشعر الكثيف عن أصوله العربية التي تعود لأمه .

كان يقول لي دوماً أنه قضى نصف عمره في السباحة هارباً من ذاك المنزل الحكاء الذي يجيد الثرثرة بلغات كثر ،الأمر الذي جعله يولع بكتابة الشعر ،لكنه كان يمقت الدراسة ،لأنه يمقت الالتزام.

لكنه وبعد ان توفي والده باكراً ووجدت والدته صعوبات في العثور على عمل كونها سورية في فترة كان السوريون فيها مثيرون للريبة في لبنان اضطر ليعمل كمنقذ في النهار ،ونادل في الليل وشكل هذا مع المبادئ العلمانية الجادة التي ورثها عن والده االقومي الاجتماعي ،سببين كافيين في أن تكون شيوعيته راديكالية وحادة وحتى أن تميل إلى العنف .

وكانت شيوعيته الراديكالية وشمس سماء الروشة قد جعلتا من جسده متصلباً مثل منحوتة من صخر ،وكم كنت أتمتع بلثم تقاطيع جسده البارزة وزواياه الحادة وتنشق الحياة منها .

أما هو فكان أشد ما يعجبه في جسدي بياضه الناصع ،بالرغم من أنني كنت أواظب في طفولتي على ارتياد المسبح الذي يقع داخل أسوار مطعم جورج ،حيث كنا نحجز المسبح لساعة يومياً خلال أشهر الصيف ،لكنني كنت أنزل المسبح بكامل ثيابي خوفاً من النار التي في الآخرة التي كانت تهددني بها عمتي خديجة مما جعل من جسدي يحافظ على بياضه .جسدي الذي أصبحت انظر إليه بحب كل صباح ،مثلما فعلت في صبيحة هذا اليوم ،مع أن ذاك الحزن الذي يجعل من جفني مثقلين لم ينجح حتى هذا التصالح مع الجسد بأن يزيله .

حملت حزني هذا إلى عيادتي وأنا أحتسي القهوة ،مر بجانب العيادة مدرسي القديم جميل والذي لا أحمل تجاهه سوى مشاعر مابين الشفقة والاحتقار ،لذا أشحت بنظري عنه وحدقت باعتزاز بصورة جدي وفي قلبي رغبة كبيرة بأن يأتي الليل بسرعة لأرشف جرعة الحياة اليومية من كارلوس .

***

لما دقت أجراس الكنيسة معلنة حلول منتصف النهار،كنت في العيادة أدخن بضجر، ففاجأتني عمتي خديجة بقدومها ،قالت بأنها قد أنهت دوامها المدرسي وشعرت بتوعك في طريق عودتها إلى المنزل ،لذا قصدتني لأقيس لها ضغط دمها .

قالت ذلك لتبررقدومها إلي ،فهي طوال تلك السنوات كانت مقلة في الحديث معي بعد ان أصبحت يسارية ،وأصرت دوماً أن ذاك الانتماء السياسي المفاجئ لم يكن سوى ردة فعل ،لذا كانت دؤوبة على الدعاء بالهداية لي .

قست لها ضغط دمها فكان طبيعياً ،فعلمت حينها أنها كانت تتحجج بهذا لكي تأتي إلي وتسمعني كلماتها المعتادة عن عدم تعارض الحرية مع الحياة الملتزمة وبأن أصدق مثال على هذا يكمن فيها ،مشيرة إلى أناقتها التامة ونجاحها كمدرسة ،رغم أنني كنت واثقة كل الثقة بأنها تعيسة وغير محبوبة من قبل أي أحد .

قالت لي تلك الجمل المعتادة مردفة هذه المرة أنها تنصحني بالطلاق إن لم أكن سعيدة مع زوجي ،لأنها تشعر بأنني على وشك أن أخطئ وأنها تخاف علي من العقاب الإلهي.

مرت أثناء ذلك بجانب العيادة عزيزة زوجة عمي مصطفى بنشاطها الأبله الذي ينم عن سذاجة وتفاهة وخواء .ولم تلتفت صوبنا ،فهي طوال الوقت كانت مؤمنة دون أي شك بأنني خائنة ،لذا كانت تتصنع السعادة عندما تمر بجانب العيادة لتوجه لي رسالة بأن سعادتها تلك هي سعادة المخلص لوطنه ولطائفته والتي يجب الاعتزاز بها أمام تعاسة الخائنين مثلي!

توقف بعد فترة جرار أمام عيادتي ،وترجلت منه عمتي وحيدة التي كانت تشرف على العاملات البدويات أثناء قطاف الزيتون .

تقدمت من العيادة وهي تبتسم ايتسامة طفولية ،وقد تصبب العرق من جبينها ،وبلل وشاحها الملفوف بفوضوية ،وقد حملت رمانة كبيرة في يدها .

دخلت إلى العيادة متحمسة ،ولم تكترث لتلويث أرض العيادة بالأوحال العالقة على جزمتها البلاستيكية السوداء ،اقتربت مني وقبلت جبيني بشغف ثم ناولتني الرمانة وقرصت وجنتي وهي تردد بصوت عال : ((ابتسمي ،ابقي مبتسمة دوماً ،إن كانت العيادة ضيقة سأوسعها لك ،وإن كان زواجك تعيساً فاطلبي الطلاق يابنيتي ،مع أن صديقاتي الراهبات لن توافقن على ذلك)).

ثم جلست إلى جانبي وأردفت بصوت منخفض : ((وافقت على زواجك في الماضي لكي تنسي ذاك الخونجي لكنني لن أقبل بأن تكوني تعيسة)).

قالت ذلك ثم نادت على إحدى العاملات التي كانت قد تسمرت بجانب باب العيادة ،وطلبت مني أن أفحصها بعد أن قصت لي عن سقوطها مغمى عليها أثناء العمل ،ثم غادرت بعد أن استأذنت بالانصراف من أجل الشروع في حلب الأبقار باكراً ،كي يتسنى لها حضور الإكليل الذي ستتم مراسمه في كنيسة البلدة في تمام الساعة السادسة .

تمددت العاملة فوق السرير الجلدي لأفحصها ،ولمعت حبة عرق كبيرة ناجمة عن خوف ربما تحت ذقنها .

وبينما رحت أفحصها مرت بجانب العيادة سيارة جورج مسرعة تصدح منها القدود الحلبية وكانت متجهة باتجاه المطعم .

لمحت فيها المدرس جميل وخطيبته هيلدا ،حدق بي المدرس جميل بنظراته المزعجة المعتادة ،فأشحت بنظري عنه وتابعت عملي .

أخبرت الفتاة بشكوكي عن كونها حامل ،فارتجفت أطرافها وبكت بشدة ثم توسلت إلي بأن أعطيها دواء لكي تجهض .

صدحت البلدة بأصوات قرع الطبول تجهيزاً لحفل الزواج المقام في الدير ،فقالت لي الفتاة في اللحظة ذاتها : ((ساعديني ولا تجعلي هذا العرس مأتماً)).

وعدتها بأنني سأحميها وطلبت منها أن تخبرني باسم والد الطفل كي نرتب زواجهما بسرعة ،لكنها لم تقبل بذلك وفرت من العيادة وهي تولول ،لحقت بها لأمنعها من إيذاء نفسها ،لكنها اختفت بسرعة.

انتابتني قشعريرة على نحو مفاجئ دفعتني إلى أن أستلقي فوق السرير الجلدي ،وشعرت بألم في رأسي كان يزداد مع صداح الطبول المقروعة والزغاريد القادمة من ساحة البلدة والتي كانت تزيد من توتري وارتجافي ،أملت رأسي باتجاه الرمانة الموضوعة على الطاولة ،فزاد النظر إلى لونها الأحمر الدموي من توعكي وخدري .

أغمضت عيني أملاً بأن يزول الألم ،وحاولت تخيل كارلوس لكنني فشلت في رسم صورة بهيجة له ،وإنما ظهر لي حزيناً مطأطئ الرأس وذليلاً ،محاطاً بهالة من لون أحمر دموي ،عندها شعرت بدمعة ساخنة تجري فوق خدي وتغسل في طريقها كل مخاوفي ،وتعيد الدفء إلى جسدي ،ففتحت عيني أمام صورة جدي وعاد إلي نشاطي .

(كم أكره الصورة التي أنا عليها الآن) تمتمت وأنا أقلب بألبوم صور طفولتي ،وتوقفت عند صورة أحبها جداً وهي صورتي بالفستان المزركش بزهور البنفسج تماماً كاسمي ،وأنا أقف بجانب جدي وهويرتدي شماخه الأحمر المبرقش بالأبيض وعقاله لافاً ذراعه حول عنقي ومبتسماً من صميم قلبه .

قلبت بين صفحات الالبوم وتوقفت عند صورة أخرى لي في حفل تكريم المتفوقين في المدرسة ،وقد وقف خلفي طاقم المدرسين والموجهين متجهمي الوجوه وأنوفهم تحلق في السماء .

مر أثناء ذلك موكب العروسين بجانب العيادة ،وراحت النسوة ترششن الأرز والأزهار عليهم من شرفاتهن وتزغردن بفرح .

دخلت حينها صديقاتي اليساريات السابقات وهن يلمعن من فرط تبرجهن وتزينهن بالحلي ،فهن وبعد أن فشلنا جميعاً في تغيير العالم نحو الأفضل ،كن قد تنبهن متأخرات لضرورة الاعتناء بجمالهن وإظهار أنوثتهن .

ركضن إلي وسحبنني من يدي لكي أخرج معهن ونرقص مع الموكب ونستعيد طفولتنا ونحن نلملم الليرات التي ترشها النسوة من بين أقدام الحضور .

خرجنا من العيادة ورحنا نركض بين الحضور وننحني لالتقاط الليرات .

بقينا نركض ونجمع النقود حتى تعبت أجسادنا و تعرقت ،وراح بعض الرجال العجز الذين يرتدون بذات تخص الشبان يعبسون في وجوهنا وهم يتأبطون أذرع زوجاتهن وكأنهم يعيدون مراسم زواجهم .

جاء بعدها قارع الطبول وطلب من الجميع أن يتحلقوا حوله وحول العروسين وأن نرقص على إيقاع الطبل ،ثم راح يضرب على الطبل بعصاه بقوة وكأنه يحطم كل الحيرة والتشتت الذي يكتنفه ،أو يعيد المشاعر والأفكار التائهة إلى مكانها الصحيح الذي على مقاسها .

كانت أصوات الضربات تفعل بي ذلك أيضاً ،لتعيد لي ثقل جسمي وتثبت أقدامي على الأرض ،لأشعر بكياني مجدداً .

فتحت كفي ونظرت إلى الليرات التي معي ،واكتشفت أنني حظيت بمبلغ جيد .

التفت إلى إحدى صديقاتي وراقبت قطرة عرق تسيل من وجهها وتجرف معها مسحوق التجميل الذي تضعه .

عدنا بعدها إلى العيادة ،وقررت ونحن في طريقنا أن أشتري بالنقود علبة مسحوق لتبييض البشرة .

جلسنا في العيادة ندخن ونستمع إلى نشرة الأخبار على أثير مونت كارلو ، وتأملت تبدل ملامح صديقاتي وعودة جديتهن وشراستهن.وفكرت آنذاك في أنه من الأفضل شراء وشاح لكارلوس بها ليحمي عنقه من برد البلدة القارس .

***

بعد أن غادر الجميع بما فيهم عماتي ولحقوا بموكب العروسين المتجه نحو الكنيسة للشروع في مراسم الإكليل ،أقفلت عيادتي وعدت إلى المنزل لأتنقل فيه بحرية تامة .كانت فرصة جيدة لي لأستعيد ذكرياتي على طبيعتي وخصوصاً وأن زوجي كان قد غادر إلى الحفل بعد أن كلف بمهمة درء عمليات الشغب التي قد تحدث أثناءه .

دخلت غرفة جدي بداية ،ورحت أشرب بالكوب البلاستيكي الذي يخص جدتي والتي راحت في آخر أيامها تمنعنا من استعماله ثم حملت أداة التخلص من الذباب التي كانت تستعملها ،وابتسمت .جلست في المكان المخصص لها والتي لم تتخلى عنه حتى الرمق الأخير ،ورحت أتساءل :هل كانت جدتي صامتة دوماً لأنها كانت ضعيفة أو لأنها كانت راضية بالقدر الذي هي شديدة الإيمان فيه ؟

في كلتا الحالتين نحن نشبه بعضنا في تعاستنا ،رغم أنني لست ضعيفة ولست مؤمنة ،إلا أنها دفنت تعاستها خلف الصمت ،أما أنا قررت عيش حياة أخرى أنفض فيها التعاسة مؤقتاً عن وجهي.

التفت بعدها إلى شماخات جدي المرتبة في خزانة حجرية من ضمن الحائط نفسه ،تناولت واحدة منهن وقررت أن أهديها لكارلوس بدلاً من شراء وشاح له .

راقبت الطريق عبر النافذة بعد ان تسلقت إلى حرفها وجلست فوقه ضامة ذراعي حول قدمي كما كنت أجلس في صغري ،وتخيلت جدي قادماً من الحقل برفقة العمال البدويين وهو يضحك ويمزح معهم .

فوجئت بسيارة جورج القادمة من المطعم تقاطع تخيلاتي ،حيث توقفت فجأة بجانب النافذة ،ونزل منها المدرس جميل ،نظر إلي مندهشاً وطلب مني أن أفتح له الباب .

قابلته عند الباب ،واقترحت عليه تناول القهوة معي لأول مرة منذ عشرة أعوام ،اعتذر عن ذلك متحججاً بالتعب لكنه بدا مسروراً لمسامحتي إياه على مافعله في الماضي و دمر حياة محمد وحياتي .

التفت إلي فجأة وقال :قبل ان أنسى ،هل سمعتي الأخبار ؟ يبدو أن الاتحاد السوفييتي سيعلن عن تفككه رسمياً قريباً جداً ؟

أشرت له برأسي أنني أعلم بذلك ،ودهش من برودة مشاعري .

عدت بعدها إلى جولتي في المنزل واتجهت نحو الأريكة وسط أرض الديار ،جلست فوقها ورحت أستعيد ذكريات تلك الأمسيات التي عشتها مع العاملات البدويات في صغري حينما كنا نسهر ونسمر و نلقي قصائد شعبية أو بالفصحى .

ثم فكرت بتلك العاملة المسكينة التي اختفت فجأة ،وتخيلت ما الذي سيحدث لو أنني كنت مكانها وحملت من كارلوس ؟

دفعني حماس ما بأن أنهض وأمضي إليه ،حملت شماخ جدي وهرولت مسرعة إلى بيته .

لما وصلت إلى ساحة البلدة شاهدت العاملة البدوية وهي تركض باكية دون وشاح على رأسها ،كانت قادمة من جهة منزل كارلوس ،ناديتها لكنها لم تلتفت إلي .

وصلت إلى بيت كارلوس ،كان بابه مفتوحاً ،دخلت فرأيته جالساً على الأريكة في الصالون يدخن عابساً ،ووشاح العاملة البدوية إلى جانبه .

(جاءت لتخبرني أنها حامل ،كنت في حاجة ماسة للجنس ،وأخبرتني أنها تمارس الجنس مقابل المال ،منحتها مبلغاً ونمت معها ،لكن من غير الممكن أن أتزوج منها ،إنها حثالة)

رفع رأسه وحدق بي ،ثم أمسك بيدي وضغط عليها وأردف : (ثم لا مستقبل لي هنا ،سأبيع المنزل و نغادر).

بقيت صامتة لبرهة ثم سحبت يدي من بين يده وهرولت بسرعة نحو الخارج .

مشيت باتجاه المنزل وفي يدي شماخ جدي وهواء بارد يداعب شعري ،لذا لففت شماخ جدي حول رقبتي و فكرت في أنه علي أن أمحو كل تلك السنوات العشر من ذاكرتي بما فيها كارلوس وأطلب الطلاق من زوجي لكي أستعيد توازني .

الفصل الثالث:2001

_1_

((جميل))

غرقت البلدة في رخاء غير معهود ،حيث عاد جيمي ابن جورج مع طموحاته في جعل هذه البلدة ملكاً له ،فاشترى الأراضي من الفقراء وبنى فندقاً كبيراً ،وافتتح معملاً للأجبان ،ومعصرة إضافية للزيتون .

وبفضل علاقاته الغير محدودة مع مشاهير في السينما والتلفزيون والرقص الشرقي استطاع إقناع إحدى شركات الإنتاج بتصوير عمل في البلدة يحكي عن حقبة الانتداب الفرنسي .

عبدت البلدية الطرقات ،وزرعت أشجار الإنكي دينيا على قوارعها استعداداً لاستقبال طاقم المسلسل .

عاد معظم المغتربين في أوروبا إلى البلدة ليشهدوا تلك الظاهرة الفريدة من نوعها ،وأقيمت الاحتفالات اليومية في ساحة البلدة ،وتخدر الجميع بالفرح والجنون لدرجة أنهم استقدموا مزيداً من العمال البدويين ليتولوا أمور المواسم كي لا يضيعوا من أيديهم أية فرصة في الاستمتاع بالحفلات المقامة .

أجر الناس بيوتهم للممثلين مما زاد من رخائهم ،إضافة إلى الأعمال التي وفرها لهم جيمي ابن جورج وشريكه الجديد حازم ابن مصطفى عم فيوليت التي فضلت كعادتها أن تبقى حيادية وغادرت منزل جدها بعد أن أصبحت غير مرغوب فيها إبان طلاقها من زوجها سيف والذي ساعدتها فيه عمتها وحيدة عندما باعت جزء من حقولها لتتمكن فيوليت من خلع زوجها ،والذي جمع أمواله وعاد إلى المدينة بعد ان نقل مكان عمله إليها .

استأجرت فيوليت منزلاً وعيادة لها بجانب الدير ،وتطوعت للعناية بالأطفال اليتامى الذين يأويهم الدير .

ورغم زواجي بهيلدا وانتقالي للعيش في منزل والدها الكبير بكن العديم الذوق ،ورغد العيش الذي كنت أهنأ فيه إلا أنني بقيت أفكر بفيوليت ،التي كانت تعيش حياة سعيدة ،فقد كنت الحظ ذلك عليها .

في إحدى المرات مثلاً ،كنا قد دعينا جميعاً إلى حفلة تواجد فيها الممثلون بعد انتهاء تصويرهم للعمل ،والذي ارتأى أثرياء البلدة وأقوياؤها أنه من الضروري إقامتها .

وقد حضر إليها جميع آل ابي محمود بمن فيهم فيوليت التي ربطت حضورها بالسماح لأطفال الميتم بالحضور ،وتخصيص طاولة لهم .

وبينما كان الجميع منشغلاً بالتصفيق لجيمي الذي راح يبرم صفقة شراكة جديدة مع رجل يدعى (عمر بيك) ،كانت فيوليت منشغلة مع عمتها خديجة ووالدها نبيل في توزيع الهدايا على الأيتام ،والاحتفال بعيد المعلم كون هؤلاء الأطفال هم طلاب عمتها ووالدها .

حسدتها على أنها غير مجبرة أن تتملق مثلي ،وكنت أرى في عينيها نظرة احتقار لي ،لشد ما آلمتني .

كانت أقسى نظرة لها في إحدى الليالي الباردة ،لما كان سكان البلدة يرقصون بشكل هستيري دون أن يشعروا ببرودتها ، في إحدى المناسبات الوطنية ،والتي لم تكن سوى سبب لتجمعهم ،لكن دافعهم الحقيقي للرقص كان نشوة الرخاء وراحة البال .

سقطت يومها زوجتي هيلدا مغمى عليها أثناء تحلقنا جميعاً لرقص الدبكة ،فسارعنا لنقلها إلى عيادة فيوليت ،استيقظت في طريقنا إلى هناك وبدت وكأنها أصبحت على مايرام ،لكن شقيقها جيمي أصر على أن نعرضها على طبيب .

لما وصلنا إلى العيادة دخلنا إلى غرفة الانتظار لكن باب غرفة المعاينة كان مغلقاً ،وقالت السكرتيرة لنا أنه ثمة مريض في الداخل ،و أن الدخول ممنوع إن لم تكن الحالة خطرة وعلينا أن نلتزم بالدور .

أهمل جيمي كل ما صرحت به ،وفتح باب غرفة المعاينة بعنف .

كانت فيوليت تقطب جرحاً في رأس طفل ،انتفضت غاضبة إبان تصرف جيمي وصرخت : كيف تفعل ذلك ؟هل أنت عديم الذوق ؟

ثم نظرت إلي باحتقار وأردفت : وأنت كيف تسمح لشاب متهور يظن نفسه أنه ملك العالم في أن يقوم بذلك ؟أليس من المفترض أن تمنعه كونك تكبره بأجيال وكونك معلمه في الماضي ؟

عندها انتفض جيمي وهددها بإغلاق عيادتها ،تدخلت وهدأت من روعهما ووعدت فيوليت بأن ننتظر دورنا .

في تلك الليلة ونحن في طريق عودتنا إلى المنزل لم أنطق بأية كلمة مع هيلدا وجيمي ،وشعرت برغبة على فتح باب السيارة والهروب من كل هذا إلى الأبد .

لكن هذا الموقف منحني فرصة أخرى للقاء فيوليت للاعتذار لها ،التقيتها في دار الأيتام التابعة للدير .كانت تغني للأطفال أغنية عن الربيع ،بينما راحت إحدى الراهبات تكلل الأطفال بأكاليل جميلة من الزهور .

جلسنا إلى طاولة في حديقة الروضة تقع في ظل شجرة زعفران مزهرة ،كانت الشمس يومها ساطعة مما أظهر لون شعر فيوليت العسلي الأصلي و نظراً للوقت الذي قضته مع الأطفال متعاطفة مع قصصهم انعكست طفولتهم في وجهها و بدت غضة متوهجة الخدين .

اعتذرت منها على تصرف جيمي واحتسينا القهوة ،وعاملتني للمرة الأولى بلطف شديد ،وذلك لما قاطعنا أحد الأطفال ليسألها عن تحضيرات عيد ميلاده الذي قرب موعده ،فوعدته بأنني سأتكفل بكل النفقات .

عدت بعدها إلى مطعم عمي جورج ،واقترحت عليه أن نقيم حفلة عيد الميلاد لذاك الفتى اليتيم في المطعم ،وأقنعته بأن ذلك سيدعم موقفه في انتخابات مجلس الشعب التي ترشح إليها و يضمن له أصوات أهل البلدة المتدينين.

قال بأنه قد ضمن أصواتهم بعد أن صرف الكثير من المال على ترميم بركة وحديقة الدير ،لكنه وافق على إقامة الحفل لكسب مودة فيوليت ومحاولة ضمها إلى قائمة النخبة من البلدة الذين استطاع ترويضهم وضمهم تحت عباءته .

لكن في مساء ذلك ليوم ولما اجتمعنا على العشاء ،رفض جيمي اقتراحنا وقال أننا لن نلهث خلف مودة مختلة كفيوليت تظن نفسها مخلصةً للبشرية ،وأن عليها هي أن تخضع لنا ،فالبلدة كلها تحت قبضتنا !

زرت في اليوم التالي فيوليت وبلغتها اعتذاري ،فابتسمت وأخبرتني أن الموضوع لا يهمها على الإطلاق وأنها ستقيم الحفلة في منزلها وأن بإمكاني الحضور وإيفاء وعدي للصبي بأن أتكفل بكامل النفقات .

شعرت بأن ذلك الموقف قد قلص المسافة التي بيننا ،وأن ذاك الاحتقار الذي تحمله في عينيها تجاهي قد حال إلى شيء من الاحترام .

وفي اليوم المقرر لعيد الميلاد ،استيقظت باكراً وارتديت بذتي المفضلة بعد أن اغتسلت ،ثم أيقظت هيلدا لأخبرها بمغادرتي التي استغربت من تخلفي عن تناول الفطور مع والدها للمرة الأولى .

أخبرتها بأنني كثفت الدروس لبعض الطلاب ذوي المستوى الضعيف لاقتراب الامتحانات ،فصدقتني .

خرجت من المنزل ومشيت مسرعاً إلى منزل فيوليت ،ولكثير من الأفكار الجميلة تتدافع في رأسي .

قابلت فيوليت في منزلها بكامل نشاطي ،كانت تغلف الهدايا للأطفال وتزينها فساعدتها في ذلك ،ثم انطلقنا معاً إلى الدير لزيارتهم و استكمال التحضيرات اللازمة للحفل معهم .

لما وصلنا إلى هناك كان الأطفال مجتمعين في الحديقة وقد بدا على سحناتهم الخوف والحزن ،وكانت إحدى الراهبات تحاول جاهدة ان تضحكهم .حكت لنا الراهبة عن سبب حزنهم ،حيث أخبرتنا عماجرى مع أحد الأطفال اللبارحة والذي يقطن في الطابق الأرضي

للمبنى المخصص للأيتام ،حيث خرج ليلاً إلى الشرفة الخلفية لغرفته والتي تطل على منزل كان قد استأجره جيمي لأحد الحراس الشخصيين له .

بعد خروج الفتى إلى الشرفة بقليل ،سمع اصدقاؤه صوته وهو يستغيث ويطلب من أحدهم أن يتوقف عن ضربه وأنه لن يمازحه مجدداً ،فخرجوا لرؤية مايحدث .

كان ذاك الحارس الشخصي ذو الحجم الهائل يصفع الطفل بقسوة على وجهه ،إلى أن أنهك الطفل وخرت قواه فسقط أرضاً مغمى عليه ،عندها نادى الأطفال على المشرف عليهم والذي قام بنقله إلى مستوصف الراهبات ومازال هناك منذ الامس .

انتفضت فيوليت لدى سماعها القصة غاضبة ثم أقسمت بأنها ستجعله عبرة لمن يعتبر .ثم طلبت مني أن أذهب معها إلى المدينة لكي نبحث عن محامي لنرفع قضية ضد ذلك الحارس .

بعد عدة أيام جاء جيمي إلي وهددني بأنه سيطلق شقيقته مني ويرميني في الشارع ،إن لم أتوقف عن مساعدة فيوليت ،وقال أن أحداً قد شاهدني برفقتها في المدينة .

ثم ضحك وأردف ساخراً : القضية كلها كالضراط على البلاط ،نحن نعرف كيف سنجعل تلك المخبولة تسحب تلك الدعوى وتغير أقوالها وأقوال الصبي وهي بكامل إرادتها .

زرت فيوليت في منزلها كي أفهم موقفها ،قالت بأن عمتها وحيدة قد زارتها وأمرتها بان تسحب الدعوى مبررةً أن جيمي سيفض الشراكة مع حازم ابن عمها مصطفى وأنه ليس من شيء أهم من مصلحة العائلة والحفاظ على قوتها وسلطتها !

ثم أخبرتها بأن حازم ابن عمها مصطفى قد هدد بأن يحيل عيادتها إلى غبار متناثر إن لم تقم بمايجب أن تقوم به !

دلكت فيوليت وجنتيها بوهن وهي تخبرني بذلك ،ثم لعنت ذلك اليوم الذي ولدت فيه في كنف تلك العائلة .

ضممتها إلى صدري بقوة ،فغفت مثل رضيع شعر بالدفء .

حملتها ومددتها فوق سريرها ،وتأملت التجاعيد التي بدأت تظهر على وجهها المنهك والمتورد دوماً .

لما أقدمت على الخروج من الغرفة مدت ذراعها إلي وطلبت مني أن أتمدد إلى جانبها في السرير ،فرضخت لها .

فكت أزرار قميصي و طلبت مني أن أخلعه ،ثم جلست فوقي وأمسكت برأسي بين يديها وداعبت شعري ،وراحت تقبل مواضع عشوائية من وجهي متنقلة بنعومة إلى رقبتي ثم صدري فبطني وتوقفت عند سرتي ثم عادت وتمددت مجدداً على السرير وطلبت مني الولوج فيها

.استيقظت بعد مدة عارياً ،وكان قد أيقظني شعور بالبرد اللذيذ الذي يلي هروب الرطوبة عن الجسد فينعشه ،ولم أجد فيوليت بجانبي .

نهضت وارتديت ملابسي ثم غادرت المنزل ،ومشيت وأنا أرتجف من البرد بينما كان المطر يهطل بغزارة فوق رأسي ،ولما وصلت منزلي كانت هيلدا تنتظرني على الشرفة ففتحت لي الباب ونظرت إلي وهي عابسة دون أن تتفوه بأي كلمة فأشحت بنظري عنها و سارعت نحو الحمام لأغتسل بالماء الدافئ ،والذي جعلني أشعر بالأمان مجدداً .

وبعد أن أنهيت استحمامي واجتمعنا جميعاً على العشاء ،علمت من جيمي أن فيوليت قد سحبت الدعوى بعد أن اصطحبت الفتى لتغيير أقواله .

في تلك الليلة جمعت هيلدا أغراضها من الغرفة وقالت أننا لن ننام في الغرفة ذاتها بعد اليوم .

لذا قضيت الليل وحيداً ويقظاً حتى طلوع الفجر وأنا أفكر بموقف فيوليت الغريب وأتساءل إن كانت نادمة على الفعل الجميل الذي قمنا به اليوم.

_2_

((فيوليت))

عندما عدت برفقة ألفريد ذلك الفتى الذي تم الاعتداء عليه من مركز الشرطة بعد أن سحبنا الشكوى وغيرنا أقوالنا ،كانت سيارة حازم ابن عمي مصطفى تصطف في ساحة البلدة ،وفيها مجموعة من الممثلين الذين كان حازم يستخدمهم كواجهة له تدعم موقفه في الانتخابات

ولما مررت بجانبها التفت حازم إلي ورحب بي بتملق مبتذل ،وكانت نبرة صوته تحمل رسالة مفادها أنني لست بحجمهم وأنني عاجزة على الوقوف في طريقهم .

تابعت طريقي باتجاه الدير غير مكترثة ،ولما وصلت كانت إحدى الراهبات تنتظرني أمام باب الكنيسة لتتسلم ألفريد مني ،وما إن أصبحت على مقربة منها حتى سحبت الصبي من ذراعي بقوة ،ثم قالت لي متلعثمة : ((ليس من الضروري بعد اليوم أن تأتي يومياً لرعاية الأيتام و الاهتمام بهم ،لدينا مشرفون كثر خصيصاً لذلك ،وإن احتجنا لك كطبيبة سوف نستدعيك)).مشيت بتثاقل صوب منزلي وأنا أذرف خيبتي دموعاً ،وعند وصولي ولجت غرفة النوم وتأملت السرير الذي يعبق برائحة المدرس جميل ،فشعرت بالاشمئزاز ثم عادت لي تلك الكراهية التي أحملها تجاهه .

قمت بوضع شريط كاسيت لفرقة البيتلز ورحت أدخن بنهم .

اتصلت بي عمتي خديجة عبر الهاتف لتدعوني إلى الإفطار يوم الغد والذي يصادف أول أيام شهر رمضان ،فوعدتها أنني سألبي الدعوة .

تمددت فوق السرير وسرعان ماغفوت ،وحلمت بتلك الفتاة البدوية التي رمت نفسها في النهر بعد أن اكتشفت حملها من كارلوس ،فاستيقظت مذعورة .

من صباح الغد ،لملمت كامل أغراضي الشخصية وملابسي وعدت إلى منزل جدي .

وبعد أن قضيت شهر رمضان بأكمله فيه ،وشاركت عماتي في طقوس الإفطار والسحور ،مستمتعة بها بخدر تام مثل طفلة صغيرة لا تكترث لشيء ،عدت إلى منزلي لتأجيره إلى عائلة تتألف من زوجين متقاعدين كانا قد فرا من زحام المدينة الخانق .

وبينما كان هذان الزوجان يوقعان أوراق تبني ألفريد كابن لهما ،كنت أنا قد قتلت طفلي من المدرس جميل دون أي شفقة بعد أن تناولت دواء مجهضاً .

فكرت بعد ذلك بأن ما أفتش عنه ربما هو النوم وإنجاب طفل من أول حب في حياتي ، محمد ،وليس مع زوجي سيف أو كارلوس أو المدرس جميل أو أي رجل آخر .

الفصل الرابع:2011

_1_

((فيوليت))

مرت السنوات على منزل جدي دون أي تغير ملحوظ ،كانت الحياة في الخارج تتغير وتتبدل إلا أن منزلنا بقي على نظامه الداخلي المعتاد .

ورغم ذلك لم أشعر قط بالملل فيه ،أو بالندم على عودتي إليه .

بعد رحيل والدي ،أصبح المنزل ملكاً لنا نحن النسوة الأربع فتحول ذاك القصر المغلق على نفسه إلى عالم أنثوي بامتياز ،بالرغم من أن مصدر أمانه ورغد عيشه كان مالاً وسلطة ذكورية .

كنا نستيقظ ونتناول الوجبات اليومية حسب المواعيد التي قررها جدي في الماضي ، كنا أنا وعمتي سارة وخديجة نقضي معظم أوقاتنا في الجلوس واحتساء القهوة مع نسوة البلدة اللواتي يقصدننا عادة من أجل ابتياع الحليب والأجبان أو شتلات الورود و أغطية الطاولات ،بينما كانت عمتي وحيدة تغيب طوال اليوم مابين حقول الزيتون والاسطبل .

كانت تلك النسوة تجدن الثرثرة عما يحصل في العالم الخارجي الذي شيئاً فشيئاً أصبحنا ننفصل عنه ،ولعل أفضلهن كانتا الشقيقتان فلك ونهاد اللتان تعيشان وحيدتين في منزل كبير في ساحة البلدة .

كانتا تأتيان يومياً إلى منزلنا لتنقلا لنا أخبار البلدة ،وممارسات حراس جيمي الجنونية فيها ،بعد ان ترك لهم مسؤولية إدارة ما تبقى له من ممتلكات في البلدة لم يبعها لشريكه الجديد عمر والذي كان قد اشترى كامل ممتلكات عمي مصطفى وابنه حازم اللذين فرا بصحبة عائلة عمي بأكملها إلى إحدى دول الخليج مع ثروة طائلة .

ومنذ أن تسلم رجال جيمي و شريكه عمر مسؤولية إدارة الممتلكات غرقت البلدة بالحشيش والأفيون كما كانت فلك تردد دوماً .

وسرعان ما انتشر الأفيون بين عمال البلدة وخصوصاً بعد أن تم طرد الكثير منهم من أعمالهم ،بعد أن حول هؤلاء الرجال البوهيميون غالباً الفنادق والمطاعم إلى ملاه ليلية وبيوت للدعارة .

أما عمر بيك والذي أصبح يملك نصف البلدة ،اشترى منزل الاسكافي جد كارلوس وهدمه ثم بنى مسجداً مكانه ،وعين خطيباً على منبره بنقوده ليبقي العنال في حالة خدر دائم ،بما يتوافق مع مصلحته .

وفي يوم وبينما كنت أنظف صورة جدي،وعمتي خديجة كانت تصلي ،بينما كانت عمتي سارة منشغلة كعادتها في المطبخ ،سمعنا أصوات إطلاق نار في الخارج ثم ما لبث أن رأينا باب المنزل يسقط أمامنا ليظهر منه مجموعة من الرجال الملثمين والمدججين بالأسلحة ،والذين كان يتمايلون كالمخبولين ويزمجرون كالوحوش بعبارات ((الله أكبر)).

ثم راحوا يكررون جملة : ((هل من رجال ؟ أين الرجال ؟)) ثم انتشروا في كامل أرجاء المنزل وراحوا يكسرون الأبواب والنوافذ ،وعندما لم يعثروا على أحد ،بدؤوا بالخروج من المنزل واحداً تلو الآخر .

لكن أحدهم تسمر في مكانه وسط أرض الديار و ساد الصمت المكان لفترة قصيرة .

ثم نطق ذلك الملثم بجملة جعلتنا أنا وعماتي نتقصف ذعراً حيث قال : ((لدي حساب علي تصفيته أولاً)).

مشى ببطء نحوي بينما راح قلبي يخفق بشدة ،وشرعت عمتاي سارة وخديجة بالصراخ والرجاء .

لما وصل على مقربة مني طلب مني أن أدخل إلى غرفة الضيوف ففعلت ذلك ،ثم دخل بعدي وأغلق الباب وراء ظهره ،وانطلق صراخ عمتاي وهما تحاولان كسر الباب لإنقاذي .

اقترب مني ،كانت رائحته مقززة للغاية ،وأسقط ببندقيته صورة جدي على الأرض فتحطمت ،ثم قام بتعليق بندقيته مكانها .

حملني بيديه من خصري وراح يعبث بشعري و ثديي ،وشعرت بأنه يرغب أن تصلني رسالة منه أنه يمتلكني الآن .

أزال اللثام عن وجهه ، فدهشت لكونه محمد أول حب في حياتي .

ابتسم بقهقهة مزعجة تخلو من أية مشاعر ،وهو يردد : ((أنت لي الآن ، كل شيء لي ، السلطة في يدي ،لأن السلاح في يدي ،والقوة أيضاً ، والقرار .. جسدك ،حياتك ،كلها ملكي وتحت سلطتي)).

لم يكن محمد ذاته ، كان وحشاً ،ولم يعد ينظر إلي كإنسانة ،كان ينظر إلي كفريسة ضعيفة أمام قوته ،وبإمكانه فعل مايريد بها .

استجمعت قوتي وضربته لكمة على رأسه فسقط وأسرعت باتجاه لوحة منزلنا حيث خبأ جدي يوماً مسدسه خلفها ، أحضرت المسدس بينما كان هو قد نجح في النهوض ويصيح هائجاً : ((سأقطعك ...))

ولم يكمل كلمته هذه إلى أن كانت طلقة مسدس جدي قد خرقت رأسه ،وخر أرضاً مثل كيس من الزبل .

سارعت نحو الباب وفتحته ،فانهالت علي عمتاي بالتقبيل وهما تجهشان بالبكاء .

ركضنا مسرعات خارج المنزل ،فالتقينا بعمتي وحيدة وهي عائدة من الحقل وفي يدها فأس كبيرة .

ثم توقفت بقربنا سيارة المدرس جميل ، ترجل منها وراح يأمرنا بالصعود إليها بينما كانت عمتي سارة تردد : أزهاري ،أزهاري .

أما عمتي خديجة فقد بدت وكأنها تحولت إلى جماد ،وجحظت عيناها وحدقتا في اللاشيء.

صعدنا إلى السيارة وانطلق المدرس جميل مسرعاً بنا ،وهو يتمتم : ((سنكون بخير ،سنخرج ،سنخرج ،سنكون بخير)).

أخفضت رأسي نحو الأسفل تاركة فرصة للنسيم بأن يجفف عرق شعري وقلت : لقد قتلت محمد .. قتلته بيدي ...

_2_

((جميل))

كنت جالساً وحيداً أحتسي القهوة على شرفة منزلي الذي أعيش فيه بمفردي منذ رحيل هيلدا مع عائلتها بعد أن أيقنت أنه لا شيء يجمع بيننا ،عندما سمعت صراخ بشر يهرولون خائفين في أزقة البلدة .

اتصلت بالدير لكي أستفسر عما يحدث ،فأخبروني بأن مجموعة من المسلحين الملثمين يهاجمون البلدة ،بغرض قتل كل من كان مرتبطاً بالدولة والسلطة الحاكمة .

استقليت سيارتي وأسرعت باتجاه منزل فيوليت ،وأنا على يقين تام بأنها في خطر .

وصلت إلى هناك فوجدتها وعماتها متعانقات ومنهكات يمشين بتثاقل باتجاه ساحة البلدة.ترجلت من السيارة وطلبت منهن الصعود ،فرضخن دون أن ينطقن بأي كلمة ،شغلت محرك السيارة وانطلقت ،وبعد هنيهة سمعت فيوليت تتمتم : لقد قتلت محمد ،قتلته بيدي))

راودني شعور بالنشوة لما سمعت عبارتها ،ورحت أرتجف خوفاً من فشلي مجدداً بأن أنقذها ،لذا زدت سرعة المحرك مستجمعاً كامل تركيزي وقوتي .

وبالرغم من أنني كنت واثقاً أنني بهروبي هذا خسرت كل ما جمعته طوال تلك السنوات في هذه البلدة ،وعدت كما كنت لما جئت إليها مفلساً ،إلا أن ما كان يعزيني هو وجود حب يربطني بهذه الحياة ،ويمنحها معنى.

عند وصولنا إلى ساحة البلدة ،التقيت بليث موجه المدرسة ابن عمة فيوليت ،الذي راح يأمرني باللحاق بسيارته ،للوصول إلى مكان آمن .

رضخت لأوامره دون أي تردد ،ولحقت بسيارته ،فعبرنا طريقاً ترابية تقبع على جوانبها أراض قاحلة تخلو من أي زرع سوى الأعشاب اليابسة الغزيرة بالأشواك .

فجأة ،تحسست فوهة مسدس موجه نحو رأسي ،التفتت فإذ بفيوليت تصوب مسدساً باتجاه رأسي وتأمرني بأن أغير وجهتي وأن أكف عن اللحاق بسيارة ليث وإلا أفرغت المسدس في رأسي .ثم أردفت : ثقتي بك شبه معدومة لذا لن أتردد بقتلك أبداً ،نفذ ما آمرك به .

استسلمت لطلبها ولم يكن الخوف ما دفعني لذلك ،وانعطفت بالسيارة نحو اليمين لندخل طريقاً أخرى تصطف على جوانبها أشجار الخوخ بخضارها المعتاد والملفت للنظر.

عندها سحبت فيوليت يدها نحو الخلف ورمت بالمسدس من نافذة السيارة ،وتمتمت :

((هكذا سنضمن بأن نكون جميعاً بخير)).

القصة الثانية: أحفاد زورو

(الشاي ثقيل ...) صرخ أرتين في وجه زوجته التي حافظت على وضعيتها المتجهمة والمحدقة فيه بصمت ،ثم أخذ يتأوه شاكياً من ألم واخز في قدمه والذي كان يتفاقم مع اقتراب حلول الظهيرة ،في يوم كادت فيه البلدة تحترق من الحر .

دفعه هذا الألم المتزايد إلى أن يزيل الضماد الذي يلف به جرحه ،وهو مرتجف اليدين ،حاولت زوجته منعه عن ذلك ،فلكمها بقوة ولؤم بيده كابحاً جسدها الهزيل وزارعاً في نفسها ذعراً جعل من دمها يتدفق صاعداً ليلون وجنتيها ،ومن عينيها تحدقان ببلاهة وعجز إليه .

لما كشف عن جرحه ،راح يتلمسه بأصابعه واستطاع أن يشعر بتعرجات اللحم الذي نما على نحو عشوائي وفوضوي في الموضع الذي بترت عنده قدمه .

مدد كلتا قدميه على الطاولة الخشبية التي صنعها بنفسه خصيصاً للحديقة الخلفية لمنزله ليملأ بذلك أوقات فراغه التي كثرت بعد ما أصابه من مصاب ،حيث كان مداوماً على الجلوس فيها يوبخ زوجته أو يساءل نفسه مذ أصيب بقذيفة أفقدته قدمه وجعلت منه جليساً متذمراً تارة وتارة حالماً متسائلاً عن الذنب الذي اقترفه ليحظى بتلك النهاية ،فهو وعلى الرغم من وجود عدد قليل من الناس الذين يستلطفونه ،مازال يعتقد بأنه كان إنساناً جيداً.

لما حدثت حرب كبرى في السبعينيات شارك فيها ، ومازال يذكروقتها لما أعلن النفير العام عبر أثير إحدى المحطات الإذاعية وسمعه بفضل الراديو الصغيرة المفضلة لديه والتي كان يحتفظ فيها خفية عن والديه كي لا يظنانها تلهيه عن دراسته ،وعندها أخاطت له والدته ثياباً داخلية سميكة لتدفئه في غيبته و ودعه والداه وداعاً عادياً يخلو من أية مشاعر ،فقد كان في رأيهما أنه من الواجب على ولدهما الالتحاق للقتال ضد اليهود الصهاينة الذين قتلوا المسيح . وبالرغم منذلك ولما عاد من الحرب ولم يكن في البلدة سوى العجائز والحشائش اليابسة في الأراضي القاحلة والموحشة والمليئة بالمستنقعات والعذارى الحائرات الكبيرات في السن ،بكى عند لقائه بهما وهما يضحكان ضحكات طفولية ساذجة ،لشخص أمامهما لم يعرفانه بتاتاً .ورفض الزواج حتى يتسنى له العناية بوالديه اللذان لم يرحلا إلا بعد أن شاخ ابنهما .

ولما استدعاه الأب ذات صباح ليقترح عليه الزواج بإحدى الفتيات التي خسرت عائلتها وبقيت وحيدة وطاعنة في السن و لا عائل لها ،لم يتوانى في اتخاذها زوجة له ،ولم يتخلى عنها عندما علم بأنها عاقر .أما في شأن عمله فعلى حد علمه كان مخلصاً دوماً فيه ،أما في حب الوطن فقد كان لينزح مع البقية لما سيطر الإسلاميون على البلدة إلا أن إصابته حالت دون ذلك ،وهو كان دوماً مخلصاً لوطنه .

راح يفكر في هذا كما في كل يوم وهو يتأمل موضع البتر في قدمه ،ويحاول أن يقربه إلى أقرب شكل ،حيث صرخ فجأة في وجه زوجته : ((هيه ،ألا تشبه وجه صقر ؟)).

بقيت زوجته صامتة وهي تلملم أكواب الشاي ،بينما كان هو يواصل تأمله كتلة اللحم مبتسماً بفخر ،ومتناسياً كمية الألم الذي شعر به لما سقطت قذيفة الهاون بقربه وهو عائد من وظيفته.

وعندما ضجر من ذلك ،راح يدندن إحدى الأغنيات التي تعلمها في الجيش ،بينما راحت بضعة فراشات تحوم حول موضع البتر في قدمه على نحو مزعج استثار غضبه ،فأخذ يضرب قدمه المصابة على الطاولة أمامه حتى نزفت دماً وكأنه استيقظ فجأة وعاد إليه الألم القديم ،وأدرك أن تلك الأغنية قبيحة للغاية .

جاءت زوجته من المطبخ على وقع الضربات ،فباغتها وأمسك بعكازه وأهال على قدميها بالضرب المبرح ، مغمضاً عينيه كي لا يشوب قسوته أية رحمة ، فذعرت زوجته وظنت بأنه سيقتلها ثم فرت وهي تصرخ باكية إلى المطبخ .

كانت معتادة على قوة وصلابة زنديه أثناء ممارستهما للجنس ،وخصوصاً في اللحظة التي يقترب فيها من النشوة حيث يضغط بقوة على كتفيها دون حتى أن ينظر في عينيها ويسرع العملية بأنانية ودون أن يكترث بما قد تشعر به من ألم .

وربما لم تكن أنانية منه ،بل نوع من الشغف بالروتين أو حب القيام بالأمور دون معنى ،كان يخاف من المعنى أو الهدف ،ويفضل أن يقوم بالأشياء دون أن يمنحها هدفاً ،فكان يضاجع ليس لإسعادها ولاحتى لإمتاع نفسه ،وإنما لأن ذلك ما تفرضه اللحظة ،أو لأنه في مكان ما من عقله ثمة قاعدة تعلمها توجب مضاجعة الرجل لامرأته.

راودته ذكرى عن ضرب والده له بواسطة العكاز نفسه في صباه لتلفظه بألفاظ بذيئة أو بعد شكوى من القس نفسه ،كان والده مسالماً وهادئاً ،إلا أنه تمتع بردات فعل قاسية لا تعرف الرحمة ،كان مثل صوفي صامت يشطح فجأة .

ذكرى والده تجعله يرتبك ويتخبط في شرك من المشاعر المتداخلة ،مابين رغبة بالقتل أو رغبة بالاختفاء ،أو ربما رغبة بالبكاء ذليلاً ومستعطفاً زوجته ،طالباً منها الصفح والعفو .

فكر فيما لو كان قد آلم زوجته،ودهش لذلك لأنه لطالما لم يكترث بأي أمر يتعلق بها ،وكان عند الاستيقاظ في كل يوم يتأمل صورة عرسهما المعلقة في الصالون ويخال امرأة أخرى مكانها ،وطفلاً ممتلئاً بينهما ،وكم تمنى لو كان بمستطاعه تغيير حياته التي عاشها ، كأن يغير المرأة التي تزوجها ويتزوج بتلك الفتاة ذات السمرة اللاتينية التي كانت تأتي برفقة عائلتها من فنزويلا لقضاء الصيف في البلدة ،وكان هو يذهب للسباحة في بركة المياه العذبة القريبة من البلدة خصيصاً كي يراها وهي تسبح بالمايو ذو الكنزة القصيرة بحيث تظهر

سرتها النظيفة واللامعة للعيان ،وعضلات بطنها المشدودة الجذابة ،لكن الأوان قد فات وكيف له أن يبدأ من جديد بعد إصابته تلك .

ثم راح يفكر في أن تعاسته وتذمره ليسا جديدين عليه ،فقد كان دائم التذمر وذو طباع حادة وكان يفرغ غضبه هذا في زوجته ،وأبى دوماً في أن يساعدها في عملها البيتي لصنع المؤن وبيعها للمصطافين القادمين من المدينة إلى البلدة لقضاء الصيف ،بالرغم أنه كان على دراية تامة أن ما تجنيه زوجته من هذا العمل يضاهي بكثير راتبه الذي يتقاضاه عن وظيفته .

لم تكن زوجته يوماً متطلبة معه ،لذا فهي تستحق معاملةً أفضل ،والمرة الوحيدة التي قدم لها نوعاً من الشكر في رأيه لما اصطحبها معه إلى لبنان وصعدا معاً لزيارة سيدة حريصا ،للدعاء لزوجته بالشفاء كي يرزقا بطفل يملي عليهما حياتهما ،وظل وقتها شهراً بكامله وهو يعاملها بلطف على أمل أن تحمل ،لكنه لما فقد ذلك الأمل لم يتمالك نفسه ذات يوم وقام بتحطيم علب المؤن المحفوظة في المنزل وغادر المنزل ولم يدخله لعدة أيام ،كان قد عزم في قرارة نفسه أن يعيشها كبوهيمي للمرة الأولى ،فراح يضاجع الفتيات في الحقول بين العشب مقابل مبالغ مالية زهيدة ،متلفظاً أثناء تلك المضاجعات بالألفاظ البذيئة التي منعه عنها والده في الماضي .

أسند رأسه إلى الشجرة خلفه في الحديقة حيث يجلس ،وحاول أن يفكر بشيء آخر ليتناسى تلك الأيام التي لطالما رغب في محوها من ذاكرته ،وسرعان ما غفا وأخذ يحلم بوالدته لما

كانت تمنع عنه طعامه المفضل ألا وهو الخبز المفتت المغمس بالحليب لو سمعته ذات مرة وهو يكفر بالله بصحبة أولاد الحي ،وأحياناً كانت تقود بها مزاجيتها التي لا تحتمل إلى جلد قدميه باستعمال غصن شجرة رمان ،لذا ظل طوال حياته يكره الرمان ويمنع زوجته من جلبه للمنزل مع أنها كانت فاكهتها المفضلة .

استيقظ من غفوته القصيرة تلك على صوت المذياع القادم من المطبخ ،حيث كان المذيع يذيع خبر سقوط عدة قذائف في بلدته ذاتها والذي أسفر عن وفاة قس البلدة ،عندها تذكر السبب الحقيقي الذي دفع الأب في الماضي لتزويجه بتلك الفتاة ،فبعد أن عاد من الجيش كان جسده متخماً بالجروح والأمراض ،وكان دائم الصمت لدرجة تخاله فيها مخبولاً ،وخصوصاً بعد معرفته بوفاة والديه ،لذا لجأ إلى الأب لمساعدته في العثور على زوجة له تقبل به على حاله ووضعه المادي المحدود .

وما إن أنهى المذيع ذيع الخبر حتى أطلقت زوجته صرخة مدوية وأجهشت بالبكاء ،فأنصت لبكائها وهو يحدق في غيمة بيضاء صيفية غطت عين الشمس فخيم الظل على الحديقة بكاملها .

بعد هنيهة نهض مستعيناً بعكازه ومشى باتجاه المطبخ ،وعند مروره من الصالون تأمل صورة أخرى له ولزوجته التقطت لهما في حريصا ،ولاحظ للمرة الأولى أنهما كانا يبتسمان معاً ،ثم

واصل مشيته نحو المطبخ ليخفف عن زوجته صدمتها بعد هذا الخبر ،وفي رأسه فكرة واحدة هي كيفية الفرار إلى بيروت .

مضت الأيام التالية عليهما ثقيلة ،فالزوجة التي لم تفارق السرير إثر مرضها وصدمتها برحيل القس ،لم تعبر عن امتنانها بأي وسيلة من الوسائل لزوجها الذي سهر على راحتها طوال تلك المدة والذي بدت عليه أمارات الانزعاج والخيبة الواضحة لاعتقاده ربما بفشله في نيل شيء من الصفح كان في أمس الحاجة إليه .

لكنها لما نهضت من سريرها بعد استرداد عزيمتها ورأته جالساً وحيداً في شمس الحديقة الحارقة والعرق يتصبب من جبينه ،نظرت في عينيه نظرة واثقة وللمرة الأولى دون أي خوف أو توجس وسألته فيما لو كان يحتاج منديلاً ليجفف به عرق جبينه .

قاطعتهما غجرية اقتحمت المنزل دون استئذان وكانت تلهث وتعرج وفي يدها يتأرجح رضيع باك ،رمت بنفسها بعجالة على الأرض ممددة طفلها الرضيع على البلاط الساخن ،ثم راحت تستنجد بهم وقدمها تنزف بشدة ،صارخة بأن طلقة نارية قد لامست ساقها دون أن تستقر فيها ، شارحة أن تلك الرصاصة قد جاءت من مصدر مجهول أثناء اشتباك حصل بين كتيبتي مسلحين أصوليتين .

سارعت الزوجة أوديت لكي تضمد لها جرحها وطلبت الغجرية حليباً لترضع طفلها ،والذي لم يكن متوفراً في المنزل وتوجب على أحد ما المخاطرة بنفسه كي يجلب الحليب المجفف من الصيدلية التي تبعد مسافة مئتي متر عن المنزل .

نهض عندها أرتين وأصر على أن يذهب بنفسه ،لكن زوجته حاولت منعه مترجية بأن تذهب هي ،لكنه ظل مصراً وربما كان إصراره هذا رغبة جدية منه بأن يقوم بما هو واجب ولو للمرة الأولى في حياته وبقناعة ومسؤولية تامتين ،أو رغبة منه بأن يختبر تجربة الأب الذي يبحث عن قوت لأبنائه .

حمل عكازه وراح يقفز على قدم واحدة ،والعرق يقطر من شاربيه الأشيبين ،ماراً بجانب الدكاكين المغلقة التي تحولت إلى مخازن للأسلحة بعد رحيل أصحابها عنها .وعندما دخل الصيدلية التي كان صاحبها ذو اللحية الشعثاء نائماً ،مد يده المرتجفة لسحب علبة حليب إلا أنه فشل في ذلك وسقطت علبة الحليب من يده فاستيقظ إثر ذلك الصيدلي ذو الملامح القاسية والغير لطيفة بتاتاً ،وراح يصرخ عليه ويشتمه ناعتاً إياه بالأعمى ،وقبل ان يبيعه علبة الحليب صار يستدرجه بالكلام ليعرف موقفه السياسي .

حمل أرتين علبة الحليب دون حتى أن يسمح له بأن يكمل جملته التي لم يسمعها أصلاً ،وراح يقفز مجدداً بما تبقى من جسده من طاقة متعثراً بالحفر التي صنعتها القذائف .

ولما وصل المنزل كانت الغجرية تخرج منديل رأس لتضعه لزوجته وطلبت منه بأن يسرع بالدخول ويغلق على نفسه باب الغرفة ،ثم حكت له أنها سمعت ثلة من المسلحين وهم يتحدثون عن حملة لجلب كل من كان قريباً من القس الفقيد كي يتم تصوير فيلم وثائقي عن موته للإدلاء بأقوال مفادها بأن القس مات تحت القصف.

لذا طلبت منه ومن زوجته الاختباء ،و قالت بأنهم عندما يأتون لجلبه ستقوم هي بفتح الباب ،و اختبأ كل من أرتين وزوجته في غرفة حفظ المؤن .

إلا أن أحداً لم يأتي للسؤال عنهم ، الأمر الذي دفع أرتين بأن يتمتم :

((يبدو أن رجلاً صامتاً ومبتور الساق غير مرئي أيضاً بالنسبة لأي أحد)).

واستحقت تلك الغجرية ثقتهما ،فاحتفيا بها طوال المدة التي قضتها في منزلهم ،إلى أن جاء ذلك اليوم الذي قتلتها فيه طلقة قناص وهي في طريقها لشراء الحليب لطفلها .عندها احتفظ أرتين وزوجته بالطفل الرضيع واعتنا به بكل شغف ،وصار أرتين يستجمع قواه يومياً لشراء مستلزماته بينما ملأ وقت أوديت بكامله .

إلا أن فكرة الرحيل عن البلاد والبحث عن حياة أفضل بقيت تشغل بالهم ،وبما أنهما لم يكن يملكان جوازي سفر نظاميين ،وممنوع عليهما مغادرة المنطقة باتجاه المناطق التابعة للدولة بسبب حصار المجموعات المسلحة .

لذا تحتم عليهما أن يعبرا الحدود السورية اللبنانية في المناطق التي يسيطر عليها التنظيمات المسلحة الإسلامية،إلا أن الطريق سيكون صعباً للغاية وسيتم ذلك عن طريق أحد المهربين الذي سينقلهم في سيارة مغلقة في طريق عبر الجبال الوعرة للوصول إلى لبنان .

وجاء الموعد المرتقب شتاءً ،وراحت أوديت تحوك السترات الصوفية للطفل ولأرتين ،وتحوك لها نقاباً شتوياً كي يتسنى لها المرور عبر حواجز الأصوليين ،وفي اليوم المحدد كان الثلج يهطل بشدة والبرد قارس ،ورغم ذلك استطاعا بعد ساعات طوال أن يعانقا بعضهما احتفالاً بنجاح تمردهما الذي تمثل في الهروب ،إلا أنهما لما انتهت لحظة نشوتهما ونظرا صوب طفلهما الرضيع الذي كان مزرقاً من البرد ،أدركا أنهما خسراه للأبد .

بعد دفن الطفل في أرض مهجورة قريبة من الحدود ،دخل كل من أرتين وأوديت مدينة بيروت وقد اكتنفهما شعور لم يعرفاه من قبل ،وكأن الموت الذي شهده هذا الطريق جعلهما لا يكترثان بأية حياة قد يصلان إليها بعد اجتيازهما لذاك القبر متغاضين عن كل ما حصل ،كان ذاك القبر سيشغل ذهنهما دوماً ،وسيكون بمثابة خوف متجسد ،خوف من الحياة نفسها .

كانت بيروت مدينة غريبة عنهما ،لأنها مثلت الحياة لميت قام ،وكأنها الملكوت لسيدنا المسيح ،بجرأة الألوان التي تزخر بها ،والعمارات التي تسبح في السماء .

وعند وصولهما إلى المنزل الذي استأجرهم لهم قريبهم الواقع في حي فقير وغير منظم ،وربما كان الأسوأ في بيروت كلها ،تبدلت مشاعرهم على نحو مفاجئء ،وتساءل كل منهما في نفسه فيما لو كان مرورهم بأحياء بيروت وتوحدهم مع كل هذا الجمال الذي أعاد إليهما ذاك الحماس للبدء من جديد ،ولو بغرفة صغيرة مبنية على سطح بناء مؤلف من ثلاثة طوابق ،في حي ذي شوارع ضيقة وأناس كثر ،يمرحون قليلاً وكثيراً ما يتشاجرون ويرمون بعضهم البعض بأصص الأزهار الكثيرة التنوع في حيهم ،أو عندما تأتي الأيام إليهم بما يشغلهم ويسليهم أو يعينهم على احتمال طباع بعضهم البعض المتغيرة باستمرار ،كما يحدث كل أربع سنوات في فترة نقل المونديال ،حينها يشهد الحي ولادة جديدة له ،ويمتلأ ببهجة طفل اكتشف للمرة الأولى كم أن ألعابه مسلية .

وقد جحدث هذا بعد فترة قصيرة من وصولهما الحي ،حيث صعد الحي بأكمله إلى أسطح الأبنية مصطحبين التلفزيونات والشاشات ليتجمعا حولها يصرخون ويضحكون ،عدا أرتين وزوجته أوديت اللذين لم يملكا أي وسيلة لمشاهدة المونديال ،كانا سعيدين لسبب آخر ،بالرغم من أن النقود التي كانت تتحصل عليها أوديت من عملها في إحدى متاجر ملابس الأطفال لدى سيدة سورية مهاجرة قديمة إلى بيروت ،لم تكن تغطي على إيجار المنزل لولا النقود التي يحصل عليها أرتين من إصلاح الأدوات الكهربائية لأهالي الحي

وهو جالس في غرفته ،إلا أن الزوجين كانا سعيدين بتأمل سماء بيروت البعيدة عن سماء بلادهم الضيقة والمكبلة بالقيود .

كانت قمة سعادتهما تتمثل في قضاء إجازة ما معاً وهما يتناولان البوظة على شاطئ الروشة ،تحت وهج شمسها الحارقة ،بوضوحها وصفائها ،هكذا بكامل جرأتها دون أي تردد أو حياء .

وبالرغم من أنهما كانا مدركين في أعماقهما أن تلك السعادة كانت تنسل منهما كما ينسل الماء من بين الأصابع ،وأن ذاك الطفل الذي دفناه هناك سيظل يربطهما بطريق العودة ،وأن نقص وسائل المعيشة كان يوقظ الجوع في أحشائهما ،وحيث ينمو الجوع ينمو الضعف والاستسلام ،ونبدأ برؤية الأشياء باهتة ،حتى ولو كانت شمساً .

لكنهما كانا على ثقة تامة أنهما قادران على الاحتمال من أجل شيء من الحياة بمقدورهما أن يعيشاه ،حتى ولو بأعين نصف مغمضة أو منهكة ،أو مع وجود تلفاز لمشاهدة المونديال أو بدونه ،أو مال لشراء البوظة والوصول إلى الروشة أو بدونه ،إلا أن ذاك الطفل الذي دفناه هناك عند بدايتهما الجديدة كان من ينغص عليهما ويزرع الإحباط في داخلهما ،لذا قررا بأن يحاولا مجدداًإنجاب طفل يربطهما بتلك المدينة ،طفل يولد في بيروت ليحمل لوالديه الشجاعة والرغبة في المقاومة ، وليمنحهما الحلم لكي تبقى أعينهم مفتوحة لتواجه الشمس وتميز لونها الصارخ بوضوح ،وعندها سيملكان الحرية ،ومن يملك الحرية يملك

القدرة على النسيان ،والقدرة على تجاهل الذكريات التي تشد المرء نحو الماضي ونحو جلد ذاته مجدداً بعذابه القديم .

وبالرغم من أنهما استطاعا رسم حلمهما وعاشا على أمل تحقيقه ،وراحت أوديت في أوقات فراغها أثناء عملها في متجر ألبسة الأطفال ،راحت تختار الألبسة الأجمل لطفلها القادم ،الذي جعلت من قدومه حقيقة حتمية في ذهنها ،إلا أن ذاك الحلم وتلك الحقيقة تعبا في صراعهما مع جسديهما اللذين كانا يضعفان شيئاً فشيئاً علاوة على الشعور بالغربة والانفصال عن كل هذا العالم الذي أمسى غريباً عنهما ،وكان من الواضح أن الواقع أقوى بكثير من الحلم ،وأنهما كانا يحتاجان لقوة عظيمة ،لطمأنينة داخلية كتلك التي اكتنفت قلبيهما عند مشاهدتهما للأبنية الشاهقة لأول مرة .

كانا يرغبان أن يظهرا عجزهما وخفتهما أمام وجود هائل ،لذا قررا أن يقصدا سيدة حريصا ،وأخذا يدخران المال اللازم للوصول إلى هناك .

وفرض هذا عليهما شهراً قاسياً للغاية ،عادت فيه نوبات غضب أرتين السابقة جراء الفزع من الخيبة مجدداً ،أو ربما بسبب تأنيب الضمير الذي كان يتأجج في فترات نومه التي طالت كي يمضي الوقت بسرعة ،تأنيب الضمير الذي كان يتأجج في فترات نومه التي طالت كي يمضي الوقت بسرعة ، تأنيب الضمير بسبب طفل مات لأنه جبن وزوجته وفقدا العزيمة بين ليلة وضحاها ،والأنكى من ذلك كله أنهما دفناه في مكان جعل من ميتته ميتة حائرة

،وكأن الطفل كان يرغب أن ينشأ مع والدين أكثر شجاعة ،والدين يتشبثان بأرضهما حتى آخر رمق ولم تغره كما أغرت والديه البديلين جرأة شمس الروشة ،بل فضل جرأتهما ،لأن الشمس أصلاً كانت شيئاً يجهله ولايهمه بتاتاً .

أما أوديت فضميرها لم يؤنبها طوال شهر المعاناة ذاك ،إنما كثر شرودها وكانت تطرد من عملها إثر ذلك ،وبقيت خيالاتها عن مستقبلها برفقة طفلها تشغل أحلامها في النوم واليقظة وتراوحت مابين خيالات ربما تتحقق بعد فترة وجيزة كأن تتخيل ولادته في مشفى فخم في بيروت ،وأن يحظى بعناية أبناء الأغنياء فيها أو قد تأخذها خيالاتها إلى ماهو أبعد ،إلى تخيله مثلاًيتلقى تعليمه في مدرسة فخمة تدرس على الطريقة الفرنسية وأن يصبح صحفيا مشهوراً ،وأن يرتدي الملابس ويتصرف بالطريقة التي تعجبه دون أن يوصف بالسمج أو يتعرض للتنمر لأنه حاد عن طريق الصواب واختلف عن أقرانه وعارض قانون الواحدية .

وجاء اليوم المخصص للصعود إلى سيدة حريصا ،اليوم الذي أيقظت فيه أوديت أرتين ولم يستيقظ ،حسبته ميتاً بداية ،لكنها بعد أن نادت على جارهم الوحيد الذي يعاملهم بلطف ودون عنصرية في الحي كله ،نقل معها زوجها إلى أقرب مستشفى خاص ،علمت من الطبيب هناك أنه على قيد الحياة ،وأنه كان قد مرض منذ عدة أسابيع بالتهاب القصبات الحاد وأنه من المحتمل تأزم الحالة وتطورها إلى ذات الرئة والتي من المحتمل أن تودي بحياته إن لم يبقى في المستشفى ،ويحظى بعناية ممتازة .

لذا بقيت أوديت بقربه طوال فترة بقائه في المستشفى وكان هو لا يكف عن وعدها بزيارة سيدة حريصا كما خططا .

وعندما خرجا من المستشفى لم يكن في جيبيهما مايكفي حتى لدفع إيجار المنزل ،فقررا أن يحققا حلمهما بالنقود المتبقية ،مدركان أنه عليهما بعد تلك الرحلة ،المضي حتماً باتجاه الحدود السورية .

وعندها لن يهمها مطلقاً سواء رزقا بطفل أم لا ،وسيزوران قبر طفل الغجرية ،للصلاة فوقه وإعلامه بانتصاره عليهما ،إلا أن رحلتهما إلى سيدة حريصا حملت لهما ما لم يكن في الحسبان وذلك عند لقائهما بريمون ابن أخت أوديت هناك عند أعلى نقطة من مقام السيدة حريصا .

كان ريمون قد بلغ الثانية والعشرين لما قرر أن يعبر الحدود السورية اللبنانية بمساعدة أحد المهربين ،بعد أن ضاق ذرعاً من حياة الوحدة في غرفة بائسة كان قد استأجرها في اللاذقية بعد أن غادر بلدته التي سيطرت عليها جماعة من المتطرفين برفقة والده بداية قبل أن تعاد له جثته من القتال مقطعة ومعدومة الملامح .

جمع أغراضه التي يطلق عليها بالمهمة في حقيبة صغيرة كان يحملها عادة على كتفه ،والتي هي عبارة عن أوراقه الثبوتية وبدون تلك الأوراق سيكون حتماً في نظر الدولة دون أي حقوق ،وهو كان يحتاج هذه الحقوق بعد أن سلبت منه الحرب كل شيء ،والده ،المنزل والحقل

الصغير الذي يملكه والده في بلدته بعد أن حول القصف المنزل إلى هباء منثور ،وقطعت أشجار الحقل في أقل من يوم لتنقل في شاحنات يقودها ملثمون من اجل تهريب الخشب عبر الحدود وجني ثروة .

حتى ماضيه وذكرياته سلبت منه بعد أن احترقت ألبومات صوره والأشياء التي تربى معها في منزله في البلدة ،واختفت بذلك من الوجود معالم طفولته بعد أن أخفى والده نصفها في الماضي بإخفائه كل مايتعلق بوالدته ،والتي فرت من المنزل تاركة ريمون رضيعاً بعد أن قرعت والده و اعترفت له بأنها لم تعد تحتمل نظامه في المنزل وصمته المستفز ونظرات عينيه المبهمة والتي من المحال توقع فحواها .

وحتى وهو يغادر البلاد لم يحمل معه من ذكرياته سوى صورة واحدة تجمعه مع والده لما حصل ذات مرة على ميدالية ذهبية في التايكواندو ،وكانت الصورة الوحيدة التي بدت فيها عينا والده لامعتان من شدة فخره به .

لذا بقي يتأمل تلك الصورة لساعات قبل أن يغادر غرفته السيئة نهائياً ليستمد منها التفاؤل ،فقد عوده والده منذ صغره على العودة إليه دوماً ليستمد منه القوة عندما يضعف أمام مواقف الحياة المعقدة التي يواجهها ،ونصحه دوماً بعدم اللجوء لخالته أوديت التي كانت المرأة الوحيدة التي عرفها في حياته حيث كانت تأتي إلى منزلهم عندما يغيب الأب من أجل مهمة طويلة كي تعتني به ،وبالرغم من أن والده كان يحذره من الثقة بالنساء وعدم أخذ

قراراتهن على محمل الجد ،إلا أنه وثق بخالته أوديت ،ربما لهيئتها التي تميل نحو الذكورة بزنديها الثخينين وحاجبيها السوداوين المقطبين دوماً ،وجسدها البدين والعريض العظام ،واختبر معها مشاعر لم يكن ليعيشها مع والده العسكري المحب للروتين والجدية ،مثل تلك المشاعر المبهمة التي كان يعيشها عند مرافقته لها إلى الحقول وفي يد كل منهما سلة من القش لقطاف التين حيث كانت تطعمه بيدها مما تقطفه ،وتأكل معه أيضاً وهما يضحكان ،فكان ذاك الشعور القريب من المتعة ولكنه مختلف عنها ،والذي عندما كبر ريمون خمن بأن يكون شيئاً مما يشعر به الابن نحو والدته ،لكن لم يستطع أن يجزم بذلك لكونه يجهل تماماً ما تعني كلمة والدة ،إلا أن تلك المشاعر سرعان ما كانت تمسي غير مهمة بمجيء والده من مهمته وسحبه من بين يدي خالته باستعجال ودون أن يشكرها ،ليعود إلى دروسه التلقينية عن عدم الثقة بالنساء ،والقيام بعدة اختبارات للتأكد من حفاظ ريمون على رشاقته بأن يحمله فوق كتفيه أو يرمي به في الهواء ويلتقطه مرات ومرات ليحرق له الدهون الزائدة التي اكسبته إياها الاطعمة الدسمة التي كانت تحشوها عادة في فمه الخالة أوديت .

وإن كانت تلك الرشاقة التي واظب الأب على الحفاظ عليها لولده قد نفعته لما تخلى عنه المهرب بعد قطع مسافة قليلة بعد عبور الحدود اللبنانية وطلب منه أن يركض بأقصى قدراته كي يبتعد أكثر فأكثر بين الأحراش لكي يصل إلى طريق عام حيث ينتظره رجل آخر سيتكفل بنقله إلى بيروت ،إنما إصرار والده على عدم ثقته بالنساء حال عندما كبر إلى نوع من

الخجل المرضي منهن ،وقاده عدم فهمه لأبسط الحركات والطباع الأنثوية إلى اعتبارها تصرفات تندرج تحت خانة العهر !

مثلما حصل معه ذات مرة مع إحدى جاراته التي تملك صوتاً رفيعاً لم يعتد عليه من قبل ،حين جاءت إليه تطلب منه أن يحمل لها أسطوانة الغاز ،وهي تلوك علكة ضخمة في فمها .يومها سرحت به أفكاره نحو تخيلها تطلب منه أن تلتهم عضوه .

إلا أنه كان ينفر من اللواتي كن يردن التقرب منه حقاً ،ويرتبك أمامهن مما جعل منه فاشلاً في العلاقات ،وحال ذلك إلى جانب انشغاله الدائم بالعمل في المقاهي والمطاعم لجمع النقود اللازمة لتغطية مصروفه ،حال دون أن يحظى بحياة جامعية صاخبة .

وإلى اللحظة التي غادر فيها البلاد لم يكن قد مارس أي علاقة مع أية فتاة ،وحتى بعد وصوله إلى منطقة برج حمود حيث من المفترض أن يلتقي هناك بصديقه هوفيك ليصحبه إلى المنزل الذي سيستأجر فيه غرفة ،ولقاءه بصاحبة المنزل ،فرح من كل قلبه أنها كانت امرأة ستينية ،فقدت كل ما له علاقة بالأنوثة ،لأنه بوجود تلك السمات فيها سيتمكن من التعامل معها بكل راحة ودون أي ارتباك .

قادت تلك المرأة الأرمنية الأصل والتي تدعى (ماغي) كلاً من ريمون وصديقه هوفيك نحو غرفة ضيقة وقذرة ،مبررة قذارتها بأن المستأجرين السابقين كانا لوطيين !

واعتاد بعدها كل من ريمون وهوفيك على الاستيقاظ يومياً على صوت مشاجراتها مع رجال الحي التي غالباً ما كانت تفتعل المشاكل معهم لتثبت لنفسها قدرتها على مجابهتهم وليمنحها هذا صوتاً يخبرها أنها كانت على حق في العيش وحيدة دونهم .

بداية أسعدت ريمون هذه الطباع الخاصة فيها لكنه وفي يوم من الأيام وحينما كانت تجلس أمام المروحة بشورتها القصير وقميص الفانيلا في يوم صيفي حار ،شعر بشيء خمن بأنه قد يسمى الانجذاب الجنسي نحوها ،وانتصب عضوه .ولما أخبر صديقه هوفيك بذلك ضحك بشدة ساخراً منه وقال بأنه بالكاد تملك أثداء.

وذات يوم طلبت منه أن يدفع الإيجار المترتب عليه إلا أنه لم يكن قد عثر على عمل بعد في بيروت كلها ،فاقترحت عليه أن يدفع بطريقة أخرى بأن يضاجعها ،ولما أثار هذا استغرابه أخبرته أنها تحب مضاجعة الرجال لكنها لا تحتمل العيش معهم .

وتكررت تلك المضاجعات لاحقاً حتى أصبح ريمون بغنى عن دفع الإيجار وتكدست الدولارات في جيوبه فراح يصرفها في البارات وعلى مضاجعة أخريات بنفس الطريقة حتى أمسى يتغيب شيئاً فشيئاً عن الغرفة وعن ماغي ،التي علم من هوفيك لاحقاً أنها بدأت بمضاجعته بعد أن ضاق ذرعاً من نقص المال إثر طرده من عمله ،وبأنها رمت له اغراضه في الشارع .

عاش بعدها ريمون متنقلاً بين بيوت نساء قويات وضخمات الجثث ،يقضي ليله في مضاجعتهن بصمت تام ،ونهاره في النوم ،إلى أن يضجرن منه ويرمين به في الخارج ،ليبحث بعدها عن أخريات

وربما أخر النعيم المادي الذي عاش فيه معهن، أخر من فتور تلك العلاقات التي أصبحت مفهومة ومضجرة لاحقاً ، وراح إثر ذلك ريمون يبتعد عن قضاء وقته مع تلك النسوة ويستقل الباصات التي توصله إلى أبعد المزارات الشهيرة في لبنان مثل مار شربل وسيدة حريصا حيث كان يعتقد بأنه سيجد فيها إجابات شافية لما يحصل معه ، وحيث التقى عند مقام سيدة حريصا بخالته أوديت برفقة رجل غريب لا يعرفه يمشي على قدم واحدة والذي علم منها لاحقاً أنه زوجها وأنهما هربا من البلاد وجاءا ليستقرا في لبنان ،وأنهما في رحلة إلى حريصا للطلب من الرب بأن يحظيا بطفل ،وجعله هذا اللقاء في رغبة ملحة بأن يعود إلى منزله مع صديق له يدعى خالد ليجمع أغراضه ويغادر ليعيش برفقة خالته وزوجها .

وبالطبع تلك القصة لم يعرف أي من خالته وزوجها عنها شيئاً ،لأنه كان يجد فيهما فرصة أخرى منحته إياها الحياة للبدء من جديد ،وبما أنهما كانا بحاجة ماسة للمال ،وهو يملك هذا المال .

جعلته تلك الفكرة يطير من الفرح ،لكنه لما خلد إلى النوم في تلك الليلة راودته الكوابيس المليئة بصور العقارب والعناكب ،ورأى نفسه مكبلاً بالقيود وجميع النسوة اللواتي ضاجعهن مقابل المال وهن يخرجن رزم النقود من بين أثدائهن ويحشين فمه بها .

لذا سارع عند استيقاظه لإيصال المال إلى خالته وزوجها فوجدهم متأهبين للسفر إلى سوريا ،كانا قد حزما حقائبهما واتخذا القرار النهائي ،ولم تفلح محاولاته في إقناعهما ولا حتى عرض المساعدة المادية عليهما ،حتى أنه جرب البكاء والتوسل لهما إلا أنهما بدا مثل المخدرين،هكذا قاسيين بسذاجة وبلاهة .

ولاحظ شجاعتهما عندما ادارا ظهرهما للمضي وتعلق أحدهما بالآخر ،وكان على ثقة بان حباً عظيماً يجمعهما .

عاد بعدها إلى منزل خالد خائباً وعندما وصل كانت سيارات الأمن والناس متجمعين حول المنزل ،وشاهد مسعفين ينقلون جثة ما إلى سيارة الإسعاف ،ورجال الأمن وهم يسوقون برجل إلى سيارتهم وهو يردد :لقد نال مايستحقه لأنه أغواني في الماضي ودمر حياتي وعودني على الرذيلة !!!

عندما اقترب من رجال الأمن وسألهم عن المغدور ،أخبروه بأن صديقه خالد قد قتل على يد أحد المتطرفين ،والذي يدعى بجبر وهو كان على معرفة سابقة به كما بدا لهم مما صرح به القاتل .

تذكر ريمون أنه سمع بهذا الاسم سابقاً من خالد نفسه حينما قص عليه حكايته ذات يوم.

كان خالد قد نفي بقرار من جده صاحب أكبر مجموعة متاجر للحوم في مدينته بعد أن وجد في غرابة حفيده وسمعته غير النظيفة خطراً محتملاً على نجاحه في انتخابات مجلس الشعب ، وذلك بعد أن زج في جيبه رزماً من المال التي تكفيه لعمر بأكمله ،لاعناً ذاك الولد وأمه التي سبق وسببت له هي ايضاً فضيحة بطلاقها وعودتها بطفلها إليه .

وقد وجد في هذا النفي فرصة لبداية جديدة بعد أن سأم من محاولاته الفاشلة مابين الانتحار أو قتل جده أو أمه ربما ،بعد أن ضاق ذرعاً من ازدراء ذاك الرجل المرعب له ونظراته القاسية و رائحة البخل التي تفوح من جسده وفمه جراء الإفراط في الصوم ، وضاق ذرعاً من لامبالاة والدته ولعناتها المصبوبة على الرجال وفورات غضبها المفاجئة التي تدفعها لضربه دون أي سبب مقنع ،واصطحابها إياه إلى بيوت الفتيات الذي قرب زواجهن كي تحبطهن ،أو إرساله _عندما لاترغب في رؤيته _إلى دكان والدها ليلهو بين السواطير وعمال الملحمة عل عوده يقسو ويغدو رجلاً أفضل من والده !

وهناك في الملحمة بدأت أفكار الانتحار تراود خالد ،أو ربما في البداية كانت رغبة في الهروب من عدم الفهم مما يشعر به أو يراوده عندما يكون بقرب العمال الضخام الأجساد ،لما يحمله ذاك القرب من قوة ،قوة تجعله يحتمل كل عبارات جده القاسية ويضرب بها

عرض الحائط غير مكترث ،وتمكنه من درء ضربات والدته اللئيمة وحتى دفعها بقوة أرضاً ،لتبدأ بشتمه ولعنه هو ووالده وهي تجهش بالبكاء .

ولكن تلك القوة كانت سرعان ما تخبو بعد زمن قليل ليعود إلى وحدته المعتادة ،وينام بعمق ليوم أو أكثر ،ليستيقظ ويعود إلى النسخة التي تعجب والدته ،تلك النسخة التي ترافقها برضوخ تام إلى حفلات الزفاف النسوية لتتباهى بها ،والتي تجلس لساعات لتنصت إلى محاضراتها عن تفوق عائلتهم على الجميع بالمال والجاه والمجوهرات والنظافة ،الشيء الذي يمنحه نوعاً من الغرور يمكنه من مواجهة أطفال العائلات الأخرى الذين يعيشون حياة طبيعية برفقة أهاليهم .

لكنه كلما كان يكبر ،كانت تلك القوة تتحول إلى شعور بالنقص و عدم الثقة بالنفس

دفع به نحو التفوق في دراسته إلا أنه زاد من تمرده على جده وأمه الذي قاد به يوماً ما إلى تهديدهما بفضح هويته الجنسية أمام الملأ كي يفسد على جده حملته الانتخابية ،إن لم يرسله إلى بيروت مع مبلغ محترم من المال ،مهملاً بذلك إكمال دراسته الجامعية ،فاراً من رحى حرب كانت لتطحنه في أي وقت ،وليضاجع هناك ريمون والكثيرغيره ،ثم ليموت بساطور موجه من ماضيه ،يدينه بثقة تامة ،ويصدر حكماً بتنظيف نفسه بدمائه كي يعود طاهراً دون خطايا !

مات خالد تاركاً ريمون متخشباً في سريره يفكر في سبب لوجوده بعد الآن ،إلى أن اتصلت به إحدى زبوناته السابقات ،فاشترط عليها مبلغاً هائلاً من المال لكي يرضى بمضاجعتها ،وارتدى ثيابه ومشى مثل شخص تعاطى كمية كبيرة من الكوكائين ،جعلته لايرى أمامه سوى هدف واحد وكان الهدف هنا هو المال ولا شيء غيره ،أما في القلب كان ثمة شيء أخر ،كان ثمة حزن كبير وحارق .

وبعد أن غادر بقليل وصل صديقه هوفيك حاملاً في يده ثروة ،لكنه لم يجده ، وكان قد اتصل به مراراً إلا أن رقمه كان مقفلاً .

فجلس على درج البناء هناك وراح يفكر بوجهة له يقصدها ،مستعيداً ما أوصله إلى هذه الحال بأن يغدو رجلاً ثرياً وضائعاً لا يعلم إلى أين سيمضي .والذي لم يتوقعه بتاتاً بعد كل ماحصل له في حياته .

فقد فر هوفيك من البلاد ، بعد أن فشل في دراسته وخسر فرصة الهرب إلى تركيا لإصرار والده الشديد عل كراهية الأتراك وعدم تنجيس قدميه بأرضهم الملوثة بالدم ،واستمر هكذا في عناده إلى أن شاهد ولده يفر الى بيروت مع جهله ونحوله .

وبعد فرار هوفيك كان والده قد توفي ونزحت والدته وأخوته إلى إحدى مدن الساحل ومنها إلى بيروت فأرمينيا ،أما هوفيك الذي استطاع دخول الأراضي اللبنانية دون أي أوراق أو جواز سفر تحتم عليه أن يبقى حبيساً لبيروت يتنقل فيها مابين عمل بعرق جبينه وبين تجارة

المخدرات أو بيع جسده لمن تدفع ،مثلما فعل مع ماغي صاحبة الغرفة التي استأجرها وصديقه ريمون ،الذي لم يكن ليشجعه على السفر إليه إلا طمعاً بما يحمله من نقود ،بعد أن ضاق ذرعاً بعيش يملؤه القلق وعدم الفهم و عدم الاستقرارفي بلد التنوع فيه يزعج أحداً مثله الذي تربى على الواحدية في كل شيء في السياسة والدين والآراء وحتى في أسلوب العيش .وكان قد توصل إلى نتيجة مفادها أنه في غربة كغربته حيث لا انتماء ولاهوية يمكن تعليق الآمال حتى على أتفه الأشياء .

لذا استقبل ريمون بكل حرارة مع أنه لم يكن يستلطف الكاثوليكيين وينفر منهم وكان يجدهم محافظين هيستيريين وحتى هبلاً ،بمن فيهم صديقه ريمون الذي لم يكن يجرؤ في الثانوية على النظر في أعين الفتيات أثناء محادثتهن بينما هو كان قد متع ناظريه آنذاك بسائر أنواع الأثداء .

وللسبب ذاته ضاجع ماغي التي كان يتقزز منها ،واغتنم فرصة خيبتها بريمون ليعرش على أملاكها ونقودها ،فقد كانت تمثل له الأمان والواقع المضمون وسط مدينة الخوف والوهم التي أمسى أسيراً لها .

نعم المال والمضاجعة شيئان قد يمنحان الامان لأن كلاهما يملك تاثيراً حقيقياً كما تملك البغضاء والحقد ،هذا ما تعلمه من والده في الصغر الذي كان يردد دوماً أنه لا أمان لهم

هم الأرمن سوى بمشاعر الغضب من تاريخ غير منصف والسعي خلف الواقعي والملموس ،بالعمل الدؤوب وتفريغ الهموم بنعومة ودفء النساء .

كانت تلك الأفكار التي حشاها الأب في رؤوس أفراد عائلته قد جعلتهم يعيشون دوماً في اضطراب دون أمان، منجرين خلف ما قد يسمى قدراً ،متقبلين بعماوة تامة كل الشعارات والأفكار الجاهزة،ربما لأنهم وجدوا فيها انتماء ما أو معنى لحيواتهم القلقة ،حتى بات الفقر و جلد الذات سعياً وراء المال بالإضافة للتمسك بالأفكار العظيمة والكبرى وتمجيد المأساة ومزارات القديسين الذين يخصون الأرمن فقط أشياء تسري في عروقهم .

وقد حمل هوفيك هذه الأفكار مع فوضى الحرب وجهله ونحوله إلى بيروت حيث الألوان كثيرة لكنها واضحة وجريئة ومدركة لاختلافها ،لذا بقي وحيداً فيها بالرغم من عمله لدى سوري يحمل الجنسية اللبنانية ويدعى نورس يشاركه شيئاً من المشاعر المشتركة ،إلا أنه وجد في تعامله معه نوعاً من الفوقية أو الشفقة ربما ،وفي نظرته نظرة من نجح في الخلاص من جحيم بلاده واستطاع بناء فضاء آخر تجاه من أنهكته أولى خطوات الطريق .

وربما ولأن نورس كان يجد فيه ماضيه ماثلاً أمام عينيه لم يتمالك رغبته في طرد تلك الشائبة المنثورة من ماضيه وحتى إذلالها والتقزز منها .

لذا رضخ لمصيره مع ماغي وراح يواسيها مقابل أن تبقيه في المنزل وتصرف عليه والتي أصرت على تمسكها بكره الرجال ،ولم تكن ترغب في أن يرثها أقرباؤها الذكور لما علمت

بإصابتها بالسرطان لذا جمعت في ليلة ما لديها من مجوهرات و أموال وأعطتها لهوفيك وطلبت منه أن يغادر قبل أن يأتي أجلها لكي تبقى في خياله تلك المرأة القوية التي تتصارع مع الرجال ،وقالت بأنها فرصتها الأخيرة للانتصار على والديها والإثبات لهم أنها استطاعت العيش حرة وقوية .

وهكذا حمل هوفيك ما منحته إياه ذات صباح ،ومضى دون أي وجهة لكنه جزم أنه لن يحتمل الوحدة أبداً فبحث عن ريمون آخر من قد يتقاسم معه حياة ما .

لكنه لم يجد ريمون ، ودفعه التفكير في الماضي لمساءلة نفسه فيما لو كان ريمون أهل ثقة أم لا ،ألم يتخلى عنه بسرعة دون أن يكترث لصداقتهما ؟

ثم راح يفكر : ماذا عن نورس ؟هل يعود إليه ؟ ويطلب مجدداً العمل لديه رغم معاملته السيئة ؟

لا ،لن يبرر له ،لن يبرر تعجرفه وأنانيته حتى ولو كان يعلم بحكايته كاملةً ،

فقد عاش نورس مع عائلته في منزل مليء بالألوان والنباتات شأنه شأن منازل تلك الطبقة المثقفة التي يصفها البعض بالمتعجرفة ،أو الطبقة التي لايعجبها شيء وتسعى دوماً نحو افتعال المشكلات.

لذا ورث نورس عن والده الشيوعي تلك النظرة التي قد يجدها البسطاء متعالية ،وذاك الجهور في إدلاء آرائه والذي خلق له مشكلات بدءاً من مدرس الديانة في طفولته وصولاً إلى الحكومة عندما كبر .

ولعل تمرده قد زاد من شراسته بعد أن أودى الاكتئاب بوالده تاركاً له والدته مع نمط حياتها الروتيني الممل والمضجر ،والتي كانت تقضي معظم وقتها بين أقفاص الطيور التي تربيها ،أو خلف البيانو الخاص بها تكرر عزف مقطوعات تشايكوفسكي وهي عابسة .وقاد به هذا التمرد فيما بعد للخروج في المظاهرات ،وربما لم يكن التمرد وإنما كانت محاولة منه لكسر تلك الصورة الرتيبة لمنزلهم والخلاص من جحيم البارانويا التي عششت في حجارته ،فصارت تلك المظاهرات بمثابة قشة يتعلق بها لإنقاذ حياته الشخصية من قيود مبادئ والديه التي دفعوا أثماناً باهظة وهم متمسكين بها ،أو كرد اعتبار لوالدين لم يعيشا معه كما يجب أن يعيش أي والدين ،ولعل تلك الصرخات التي كان يطلقها كانت بمثابة تعويض عن ذاك الصمت الذي أحاط به لسنوات طوال في منزله ،صمت تخلله أحياناً عزف أو لعنات والدته ،وأحياناً أغنياتها الثورية المخذولة ،والتي كان يغني مقطعاً منها لحظة اعتقاله ،ولم يقتصر الأمر على تذكر أغنيات والدته وإنما راودته في لحظة الاعتقال جميع ذكرياته عن والديه وعن حياتهما الشيوعية المختلفة والتي جعلت منه شخصاً مختلفاً ومكروهاً منذ صغره حيث كان رفاقه يجدون فيه ذاك الطفل المدلل والجبان والمقيد بمعارفه الكثيرة التي لا

يفهمون منها شيئاً مما قاد به نحو الانطوائية التي منحته مظهراً مختلفاً وشخصية استثنائية انجذبت لها الفتيات في الجامعة لكن دون أي جدوى ،فقد كان دائم الرفض لخوض علاقة كاملة وجدية ،لأن في ذلك خطر على اختلافه الذي كان ليدفع ثمناً قد يصل إلى حياته مقابل أن يحافظ عليه .لذا خرج بعبثية في المظاهرات دون أي هدف أو مبدأ يدافع عنه ، .

وحتى بعد خروجه من المظاهرات لم يستطع تحديد شعوره ،أو فيما إن كان سعيداً بذلك أم لا ،كما لم يعرف في أي وجهة عليه المضي ،ولما عاد إلى منزله كانت والدته قد أخرجت ثروتها الخبيئة و جهزت له أغراضه استعداداً لإرساله إلى بيروت برفقة توما ابن صديقتها والذي قرر هو الآخر مغادرة بلاده بعد احتراق مصبغته .

عند وصوله بيروت شعر بأن الحياة التي كان يرفضها أصبحت مهمة ،وراح يسعى إليها بحيوية وحماس كبيرين ،فأنشأ مطعماً صغيراً له في غضون فترة قليلة ،وهو العمل الذي لم يكن ليتوقع أن يخوض فيه بعد كل الكتب التي قرأها في منزل والديه .

شعر بنصر خاص وشخصي ،نصر يبعث على الاستعلاء والتمتع بالاختلاف من جديد ،حتى لو كان سبب اختلافه هنا هو المأكولات الدمشقية ،لذا كان يستقبل العمال القادمين من سوريا ثم يهينهم ويشعرهم بتفوقه عليهم بأنه استطاع الخلاص من واحديتهم وتشابههم

وأسس كيانه الخاص المختلف عنهم والمختلف في البلاد التي لجؤوا إليها ،مثلما فعل مع هوفيك ذات يوم ،وترك فيه جرحاً من الصعب أن يلتئم .

لذا استبعد هوفيك أن يكون نورس وجهته المقبلة ،وقرر أخيراً أن يدفع جزءاً من المال لأحد المهربين لإيصاله عبر البحر إلى قبرص ومن هناك إلى تركيا فدولة أوروبية أخرى ليحصل على لجوء ما وأوراق تمكنه من ملاقاة عائلته في أرمينيا مع أن الأمل ضئيل للغاية بأن يقطع كل هذه المسافات دون أن يقبض عليه أحدهم .

كان يفكر في هذا تاركاً لقدميه الحرية التامة بأن تسيرانه كما تشاءان ،ووجد نفسه فجأة يمر من أمام مطعم نورس ،وشاهده جالساً خلف طاولة يتناول الشاي وحيداً ،ورأسه مسنود إلى الكرسي خلفه ،أخذ يتأمله فوجده سارحاً منشغلاً في التفكير بشيء ما ،ثم لاحظ بأنه قد تنبه فجأة وأخذ كأس الشاي بين يديه ،وسمعه يقول :

(لقد غدا الشاي ثقيلاً جداً ،ولم يعد طعمه مستساغاً ،ثقيلاً جداً كما الوحدة).

القصة الثالثة: اعترافات البومة القاتلة

الإنسان يتطور باستمرار ،تلك مسلمة ،على الأقل بالنسبة لي ،لذا وجب علي أن أتخلى فوراً عن ارتداء ثيابي الداخلية السوداء واستبدالها بالصفراء أو البرونزية اللماعة .

قد يتوتر بعض الذين يؤمنون بتخمين العمر العقلي من خلال ذوقك في اختيار الألوان المفضلة ،وقد يعارض أولئك الذين ينسحبون من البارات فجأة ذات ليلة مقدسة قاصدين إحدى النسوة المباركات والتي تملك قدرة خارقةً على إمطار السقف ليرات من ذهب وفضة.

لكن هذا أمر طبيعي بالنسبة لمن لم يصغي بعد للنغم الذي في القصة ،ولم يذق أبداً مرارة الخزي الذي يسببه ارتداء الثياب الداخلية السوداء باختيار حر وانتحاري .

ربما تتساءل يا قارئي العزيز والنخبوي حتماً ،من هذه ؟بماذا تهلوس ؟

ها أنا ذا أتخلى عن متعة الترميز من أجلك ،وإليك قصتي ..

في الواقع لقد قتلت من أحب لذا الآن أهلوس مثل طفل أنهى للتو لعبة للدوران حول الذات يهلوس ثم يضحك ضحكة حقيقية .

وأنا أضحك مثله وأرمي بثيابي الداخلية السوداء الملوثة بعرق الوحدة والشعور بالذنب والهوس وكبرياء من يقف في منطقة الدفاع عن نفسه أمام العالم كله في أقرب قمامة .

أي حبيبي ،قتلتك وأنا أبكي فرحاً ،ولأنني لا أؤمن بالتقمص ،ولا أعد نفسي بلقاءات لي معك في ملكوت أو جنة ،فأنا مطمئنة بجحود ونذالة ،وقلبي تثلجه الطمأنينة ،وعروقي تنبض بنشوة وقحة .

قتلتك ،بالرغم من أنك كنت لطيفاً معي في تلك المرة الوحيدة ،عندما قررت أن تصنع لي وشم الميزان الذي لطالما تمنيته ،إلا أنك حتى في هذا كنت بخيلاً معي وتسبب لي الوشم بالتهاب فظيع ،مخلفاً وراءه ندبة على شكل بومة ،وبما ان كليهما يرمزان إلى العدل ،الوشم الذي صنعه خيالك ،والندبة التي سببتها واقعيتك الفظة ،قد منحاني الفكرة والدافع بأن أقتلك .

من أنت كي تحققي العدالة ؟ سيعارض الليبراليون المدللون عند الله ،والمؤيدين للقانون الذين يثقون بوزارات العدل ،وسيحسدنب المتدينون المتعصبون ويتحسروا على فرصة في القتل ضاعت منهم .

لابأس ،لنعذرهم ،فهم منشغلين حد العماوة في حيواتهم على الأرائك الوثيرة برفقة أجداد وأعمام وعمات مستمتعين بلعبة تصنيف البشر إلى جيدين وسيئين والتي تمثل زبدة الحياة في عيونهم .

لذا كان الناس ينتحرون أو يدمرون أنفسهم للهروب من شعور المرء بأنه حشرة وسط التشدقات المثالية وغثيان المقارنة بروعتك الأبدية التي لا مثيل لها .

أنت أيها الفنان القوي والثري ذو الوجه الفتان والمواقف البطولية التي تحظى بإعجاب الرجال والنساء ،المومسات واللواتي تتشقق كواحلهن جراء العمل المتواصل .

طبعاً فقط أولئك الذين يعيشون ضمن العالم الذي تباركه وليس أولئك النجسون أو الكلاب في نظرك الذي يحلل لك أن تدعس في بطونهم ،لتنال بعدها إحدى مكافآت السماء التي تطمأنك بأنك كامل ومفضل عند الله وبأن خصيتيك مباركتين ،وتهديك ضحكةً بلهاء وطويلة الأمد ،واعتذاراً ملحاً لأنها جمعتك ذات مرة بقريبك المسخ كما تناديه وجعلتك مضطراً لسماع صوته الحاد ورؤية أذنيه المشوهتين ،اللتين تشكلان خطراً على مرتبتك عند الله ،وعند أصدقائك وصديقاتك الأقوياء الرائعين ذوي الخلقة التامة والحيوات المشرقة الصامتة الراقية ،الرجال منهم مع فحولتهم وذكائهم وذوقهم الرائع في انتقاء الملابس ،وثقافتهم وصوتهم الكولونيالي الجبار ،والنساء منهم مع جمالهن الأخاذ وبياض بشرتهن وظلمة شعورهن وعظام وجناتهن البارزة وأنوفهن المقصوصة الحادة مثل سيوف ،وجديتهن اللافتة للنظر ،ونظرات احتقارهن المتعالية التي تجعلهن أكثر جاذبية بالنسبة لك ،إلى درجة تفوق جاذبية وشومهن التي صنعتها بنفسك فوق مؤخراتهن .

آه أيها الفحل العلماني الذي يصافح مساء من وصفهم بالنجاسة صباحاً لأنهم ليسوا من طائفته المباركة ،ويوقع معهم عقود البيع والشراء ،ويشرب معهم نخب الصداقة والنجاح المشترك .

مثلما فعلت ذات مرة مع صديقك تاجر الصديريات الذي ابتعت منه صديرياتي السوداء وأهديتها لي في عيد ميلادي عندما وبختني ولمتني عن عدم إقامة حفلة صاخبة في إحدى الملاهي الليلية التي يرتادها أصدقاؤك الأثرياء ،ذوي الشوارب العثمانية وزوجاتهن الكئيبة المحتشمات اللواتي يلتزمن الطاولات دون أي حراك بينما تعرض أنت مواهب خصرك النحيل وجركاتك الرشيقة وجسدك المشدود ذي العضلات المتناسقة والتي ماهي سوى ميزة أخرى خصك الله العظيم فيها ،والتي تمنحك الثقة مجدداً بخلقتك التامة وبأنك غير ملعون عند الله مثل أحمر أو مخنث ،وأنا لابد لي هنا أن أعلمك بأنني لم أتحمس يوماً لحماسك المبتذل في إظهار طائفتنا على أنها بارعة ومتفوقة في كل الأمور ،ولا لاهتمامك الزائد في إظهارنا بأجمل حلة ،وإصرارك على اللون الأسود للثياب السوداء التي أرتديها ،لأنها تبرز بياضي الفارسي الناصع كما كنت تنشد لي قبل كل مضاجعة وأنا لم أستغرب يوماً إصرارك على اللون ذاته ،لأنك كما كنت دوماً تعلم جيداً ماتريده ،إلى حد بائس ومقيت ومقزز ،على عكسي أنا القطة الجبانة التي تفر فزعاً من الجرذان .

أذكر كم كنت معجباً بوصف القذافي لثوار ليبيا بالجرذان ،وراق لك ذاك الوصف إلى درجة حسدت فيها القذافي عليه مع أن القذافي نفسه لم يرق لك يوماً .

فأنت وإن كنت تعلم جيداً ماتريده في جميع الأمور إلا أنك في السياسة تكاد تختنق عندما تفصح عن مواقفك السياسية المشرفة لأن حدتك ومحاولة هزيمة الطرف الآخر تجعلك تنسى أنه على المرء أن يحافظ على معدل شهيقه وزفيره حتى ولو كان في حلبة مصارعة .

نعم ياحبيبي ،أنت مصارع يربح دوماً ،لأنك وبكل ما أوتي لطاغية من طاقة وقبل أن يقوى خصمك على النهوض أمام ازدرائك الذي يشله في أرضه ،تمد يدك على نحو مباغت لتخنق صوته ،سابقاً في ذلك إلهك الأشد رأفة منك ،والذي من شأنه أن يمنح الفرص على نحو أفضل منك ربما .

(الفرص تعيق تحقيق العدالة ،يافاطمة ،كنت تقول لي .

أقترح عليك : (ولكن الإنسان قد يصلحه النصح ،فلكل داء دواء)كنت ترمقني حينها بنظرة قرف وتصرخ في وجهي : (ما إن تخطر الفكرة لأحدنا تفسده وعلينا نحن أن نتدخل لنكبح جماح الفعل الذي ستقود إليه الفكرة حتماً).

لذا فعليك هنا مسامحتي على قتلك ،لأنك معي تجاوزت الفكرة منذ زمن بعيد ،وكنت تقوم بفعل قتلي منذ زمن وعلى نحو بطيء ،فاعذرني ياحبيبي أنني قتلتك ،فإنك لما كنت تكبر

ويتعاظمة شأنك بدأت أنا بالتلاشي ،وانتقلت إلي هواجسك على نحو رغبت فيه بأن أتخلص من ثيابي الداخلية السوداء وأقتلك لأبدأ رحلتي في تحقيق ذاتي .

فمنذ كنت قد ولدت ،قمت بسلب هذا الحق مني ،عندما صهرت بالضرورة ذاتي في ذاتك العظيمة ،كما كنت تفعل روتينياً مع كل من تستقبلهم هذه الحياة كما لو أنك هيرودوس الرؤوف الذي لايذبح ولايسلب الأطفال حقهم في الحياة ،إنما يجعلهم أحياء دون الحق في أن يعيشوا .

وأنا كسائر المولودين ،وجب علي أن أحبك بإخلاص تام ،مع أول شهيق ،وأن أصرخ صرختي الأولى بعفوية كمن يهتف ،أو يتلو صلاة ما .

ثم عندما حملتني والدتي بين ذراعيها وقربت فمي من ثديها الضخم ،الذي يفيض خيراً بفضلك ،كان علي أن أشكر الله على منحك قوتك المبجلة التي منحتني نعمة التمتع بمثل هذه اللحظات باستعمال لغة ما .

وما إن استقرت الحلمة في فمي ورحت أرشف منها ،تباركت بماءك الطاهر ،الذي تدفق في زمن سرمدي في أثداء الأمهات ،حاملاً معه سر العظمة وقوة الخجارة ،ونباهة الملوك القدامى .

وبعد زمنٍ قصير ،وعندما خطوت أولى خطواتي في الفسحة أمام منزل جدي ،ركضت نحوي وقد كنت حديث المشي ،لتنزع عن رأسي بكلة شعري ،لتمارس بذلك سلطتك علي للمرة الأولى ،جئت وخلفك تلهث والدتك الأنيقة المتشحة بالسواد دوماً والتي لم تبتسم لنا يوماً ،وسحبتك من يدك دون أن تلقي التحية على والدتي لتصحبك إلى منزلكما المقابل لمنزلنا ،لكن المختلف كلياً عنه ،فمنزلك الحجري الكبير المغلق النوافذ ،ذو اللون الواحد المضجر ،لم يكن ممتعاً للفرجة بالنسبة لرضيعة مثلي ،بالرغم من أن ظله كبير بما يسمح لنا بالجلوس في فيئه بعد ظهر كل يوم ،إلا أن بيت جدي كان بألوان وروده الصاخبة والضجيج المسلي الذي ينبعث منه ،كصوت جدتي وهي تغني لإديث بياف ، أو صوت خالي وهو يلقي قصائده البوهيمية كان اكثر ظرافة من منزلكم الصامت ،الذي يرتاده رجال أقوياء بملابس قبيحة وشيوخ مطأطئي الرؤوس على نحو كان يصعب علي كطفلة تمييز ألوان أعينهم .

وحتى والدك الضخم الجثة والذي لم أميز لون عينيه هو أيضاً لإخفاءهما بنظاراتى شمسية سوداء دوماً ، كان لايبدو بوداعة وظرافة والدي ذو الشعر المجعد والوجه المتعرق دوماً ،ورائحة شعر الصدر المميزة التي تشبه رائحة العشب الأخضر في الربيع .

وهنا لا بد لي أن أوضح لك قبل أن تلتمس في كلامي نزعةً بروليتارية تجعلك تطلق لخيالك الخصب العنان وتظن بأني أعاني من عقدة نقص ، لتمنحك تلك الفكرة فرصةً لنفش ريشك

أمامي ثم التعاطف معي وكأنك قدمت تنازلاً حتتك على تقديمه أخلاقك العظيمة ،وحكمة الزاهد الهندي التي تتحلى بها .

إلا أننا وإن كنا لا نؤمن بحقيقة مطلقة ولا نثق بها ،فقد وجب علينا أن نحرر ماتمليه علينا دواخلنا ،وأن نقول أو نكتب ،بثقة أو بتردد مانتذكره من تصوراتنا الأولى النقية .

لذا ياحبيبي عليك أن تحمي نفسك من الصدمة عندما سأعلمك بأنني كنت أسمع تأوهات والدتك وعرير والدك أثناء مضاجعاتهما الفجائية التي لا تعرف لها وقتاً محدداً ،والتي تتبع إلى مزاجية والدك ونوباته الهيستيرية .

التي كنت أرقد في سريري أخمن النتائج المترتبة عنها وأخال حينها نافذة غرفتي تتحرك لتغدو في مركز السقف وينفتح فيها ستار ليبرز خلفه بطن والدتك المدور العاري والمتورم ،ثم يمتد كف والدك الضخم ليرسم بسبابته دائرة من مسحوق الفليفلة الحارة في سرتها ،ليختفي كل شيء ولتخرج أنت مثل ومضة في لاوعيي وحذاء والدك القبيح فوق رأسك مثل قبعة .

كنت عادة سرعان ما أغفو قبل أن يغلق الستار على الهلاوس الانتهاكية الغير طبيعية بالنسبة لطفلة مثلي ،وما إن أستيقظ في اليوم التالي وأخرج لأرى استمرارية حياتكم على نفس الوتيرة ،كنت أقلق وحتى أغضب .

مثلما كنت أغضب من دوام تردد أولئك الملتزمين بالمواعيد الكنسية إلى منزلكم عقب انتهاء التزاماتهم الكنسية .

وربما بقدر ماكانت تقززني هيئة المعلمات اللواتي وضعهن والدك في مناصبهن الأنيقة مع مسحة من الشحوب المحير ،وكأنهن تعرضن للغسل المتكرر بكل مافيهن ،وكنت أتقزز من تقدم سيارتكم اليومي بوحشية وحماس مثل سيل عكر يستحوذ عليه شبق ورغبة عظيمة في لعق الطرقات والبشر والتي على الأغلب كبرت معك ودفعتك ليس فقط إلى لعقي لأجف مثل حجر ،إنما إلى تناولي مثل شطيرة لذيذة ،ثم تغليف فتاتي في صديرية سوداء أو خلف ستار من صور مميزة ملتقطة من أفلام إباحية باهرة ،قمت بتمريرها من وراء ظهر شيخك المفضل الذي تتباهى بأبوته مثل عربي جاهلي .

وهذا طقسٌ من الطقوس التي ورثتها عن والدك ،الذي كان يشرف بنفسه على الصعود الأنيق لقطيع الخراف والماعز فوق لوح خشبي مائل مسنود إلى شاحنة الشيخ كمكافأة له على تولُيه مهمة ترسيخ كرم وعظمة والدك في أذهان الجموع على نحو يجعل منهم يتقبلون رائحة زنخة الذبائح المقدسة برحابة صدر كما لو أنها عطر فرنسي ،معصور بأسلوب ميتافيزيقي رثٍ وهيستيري .

أيُ حوتٍ والدك ؟ومن هو ؟وماذا يعمل ؟

سيتساءل القراء ،ولهم كامل الحق في ذلك ،لكنني لن أتمكن من ان أسعفهم بالإجابة ،لأنني أنا نفسي لا أعرفها ،ولم تثر فضولي يوماً ،وكل ما كنت متأكدة منه كطفلة هو ان كل ما يتعلق بوالدك يثير في الفزع والقرف والرغبة في التغوط .

إلا أن هذا لم يكن ما أكنه لك ،بل على العكس ،كان التقرب منك أمراً لا يستحق العناء ،والذي لن أدعي بأن الدافع لذلك كان الشعور بالشفقة ،لأنني كنت أجدك إنساناً تعيساً رغم قوة وسلطة والدك ،وإنما دفعني لذلك رغبةٌ في إحلال العدل بيننا ،أنا وأنت ،وكل تلك المعضلة الوجودية التي جعلتنا نخلق هكذا متناقضين ومنقوصين وحكمت علينا خوض صراع طويل انتهى بتدمير كل منا للآخر في نهاية المطاف ،وجعلتني أستنزف جميع فرصي في أن أكون ودودة لأقتلك بعد حكاية ثقيلة الوزن .

نبذة عن المؤلف

الاسم :الحسين سليم حسن

مواليد عام ١٩٩٢

سوريا من مدينة اللاذقية

العمل :طالب ماجستير التعليم الطبي في الجامعة الافتراضية السورية.

نشرت عدة قصص في مجلة أغلى شباب .

الأعمال السابقة :

– مايهم أنك حي (رواية) عن دار الحوار للنشر . اللاذقية ـسوريا

–جنين لا (خواطر) دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني 2020